تأملات
في
سورتي لقمان والسجدة

بقلم
الدكتور
شحات حسيب الفيومي
الأستاذ المساعد بقسم التفسير
بكلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية
جامعة الأزهر

الطبعة الأولى
١٤٠٨ هـ — ١٩٨٨ م

دار الطباعة المحمدية
٣ درب الأتراك بالأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

تتجه العقول والأبصار إلى مناحى شتى ، فبعض الناس يتأمل فى السياسة بكل أشكالها وألوانها وموضوعاتها والبعض الآخر يتأمل فى تاريخ البشر ويقف وقفات عند معالمه المختلفة . فالمتأملون يختارون ميادين تأملهم حسب أهوائهم أو عواطفهم أو عقائدهم بيد أن هناك ميداناً واحداً من بين هذه الميادين هو أشرفها ، وهذا الميدان هو القرآن الكريم فما أجمل التأمل فيه بعد التزود بالأزودة المتباينة التى تساعد الباحث على اكتشاف درره واستخراج لآلئه بعد الغوص فى أعماق معانيه وألفاظه .

فما أعظم بيان بلاغته وفصاحته ، واستنباط أحكامه . والوقوف على أسباب نزوله وتخصيص عامه . وتقييد مطلقه ، ووجوه إعجازه .

وهذه تأملاتى فى سورتى لقمان والسجدة . أرجو الله العلى القدير أن أكون قد أصبت فى تأملاتى . وأرجو أن يجد القارىء فيها خيراً كثيراً .

المؤلف

سورة لقمان

هذه السورة مكية . قال ابن عباس هى مكية إلا ثلاث آيات أولهن «ولو أنما فى الأرض» وقال : قتادة إلا آيتين أولهما «ولو أنما فى الأرض» إلى آخر الآيتين .

مناسبة السورة بما قبلها :

لقد انتهت سورة الروم بقوله تعالى « ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون . كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون . فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون » .

فهذه الآيات التى انتهت بها سورة الروم تحدثت عن اشتمال القرآن على كل مثل وإذا وردت فيه آية تدل على إعجازه وأنه من قبل الله تعالى قال الكافرون ما أنتم أيها المؤمنون إلا مبطلون . ومثل هذا يطمس الله على قلوب الذين لا يعلمون . ثم قال الله فى صدر سورة لقمان إن هذا القرآن كتاب يشتمل على الحكم الباهرة والمقاصد العاليه وهو هدى للمحسنين فقال (الم . تلك آيات الكتاب الحكيم . هدى ورحمة للمحسنين) .

أهداف سورة لقمان :

أولا : حديث السورة عن القرآن بأنه ذو حكمة فمناهجه حكيمة لأنه نزل من لدن حكيم عليم . وهذه المناهج تهدى المحسنين الذين أحسنوا أعمالهم إلى ما ينفعهم فى دنياهم وأخراهم . وهؤلاء المحسنون يؤدون الصلاة فى ميقاتها . متقنين أركانها . ويؤدون الزكاة إلى مستحقيها . فهم بالآخرة مصدقون . وهم على هدى من ربهم ، الفائزون برضوانه .

ثانيا : بيان لون من سلوك الشرك .

لقد كان بعض صناديد قريش يأتى بأساطير الأولين ليصرف الناس عن القرآن ويضل الناس بغير علم ويتخذ سبيل الله وآياته هزوا وهذا الصنف له عذاب مهين . ويقابل هذا الصنف الذين آمنوا وعملوا الصالحات وهؤلاء لهم جنات النعيم .

ثالثاً : ترسيخ عقيدة التوحيد عبر صفحة كونية كبيرة تنطق بالبراهين التى تطالع الفطرة البشرية من كل جانب وتخاطبها بكل لسان «خلق السموات والأرض بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة ، وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم» .

وأمام هذه الأدلة الكونية التى تثير الشعور وتأخذ بتلابيب القلوب الشاردة . فتطبع فيها تلك البراهين ويراها أصحاب الأذهان الكليلة التى تجعل لله شركاء . وهى ترى هذه الصفحة الكونية «هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين» .

رابعاً : تقديم قصة لقمان للناس لتقرير قضية التوحيد والدعوة إلى أعظم السلوك . والدعوة إلى بر الوالدين ولفت الانتباه من خلال هذه القصة إلى حساب الآخرة وبيان أن الله لا تخفى عليه خافيه. ثم يأتى الأمر بإقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والأمر بالصبر ثم بيان كيفية المشى والالتزام بغض الصوت .

خامساً : بيان نعم الله المتعلقة بالسموات والأرض: وفى ظل هذه النعم التى يتقلب فيها الإنسان يبدو الجدل فى الله من بعض البشر « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير» ويذهب هذا الصنف شأواً بعيداً فى الضلال فيؤثر السير على درب الآباء رغم أنهم عاشوا فى دياجير الكفر «وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا

عليه آباءنا » ، وهو موقف سخيف ينبىء عن بلادة عقولهم ثم يتبعه بمؤثر مخيف «أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير» .

سادساً : عرض الإخلاص فى العبادة وبيان جزائه وبيان جزاء الكفر:

« ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور» ويصحب ذلك العرض تهديد للكفرة . «نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ» وبعد هذا يواجههم بمنطق الفطرة وهو التوجه إلى هذا الكون فلا تملك إلا الاعتراف بالخالق «ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون » . ثم يصور امتداد علم الله غير المتناهى وانطلاق مشيئته فى الخلق والإنشاء بلا حدود ويجعل من هذا دليلا على البعث «ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم. ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير » .

سابعاً : بيان قدرة الله غير المحدودة فى بعض الآيات الكونية : وهو مشهد الليل الذى يطاول ويمتد فينقص من النهار . ثم بعد ذلك ينقص حتى يتساوى مع النهار . ثم يأتى النهار فيزيد ويدخل فى الليل . ثم يتبع القرآن ذلك بآية أخرى وهى جريان الشمس فى فلكها وجريان القمر فى مداره وكلاهما يجرى إلى أجل معلوم لا يعلمه إلا الله . وجريانهما تسخير من الله وتذليل لخلقه . «ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير» ويتخذ من هاتين الآيتين دليلا لذى الفطرة على التوحيد «ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير» ، ثم يتبع ذلك بآية أخرى تدل على قدرة الله تعالى وهى جريان الفلك فى البحار فهى تسير بقدرته «ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور» .

ثامناً : بيان فطرة الله فى النفس البشرية : وهى فطرة التوحيد فهى موجودة فى النفس مهما زيفت وغيرت فتظهر فى وقت الاضطرار وفى الوقت الذى تنقطع فيه الأسباب عن الإنسان فتتجه القلوب إلى فاطرها وإلى خالقها « وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور » .

تاسعاً : تصوير مشهد من مشاهد القيامة : وهو أنه لا ينفع عمل نفس نفساً أخرى وإن كانت وشائج القربى بينهما قريبة كقرابة الوالد لولده وبالعكس . ثم حذر من بطش الدنيا بأهلها .

عاشراً : ساقت الآيات أموراً غيبية خمسة وهى : علم ميقات الساعة وعلم ما فى الأرحام . وخفاء أمر تحصيل الرزق فى الغد والمستقبل وعدم الأرض التى يموت فيها الإنسان ثم يعقب ذلك بقوله « إن الله عليم خبير » .

مقدمة فى الحروف المقطعة

اتجاهات المفسرين حول معناها :

لقد اختلف العلماء المفسرون فى معانى الحروف المقطعة التى بدىء بها فى أوائل بعض السور إلى مذهبين :

المذهب الأول :

قالوا: هذه الحروف مما استأثر الله بعلمها فرد علمها إلى الله ولم يفسروها، ولقد ذهب أبوبكر وعمر وعثمان وعلى فى أحد قوليه وابن مسعود وذهب إلى هذا عامر الشعبى وسفيان الثورى والربيع بن خيثم واختاره أبوحاتم وابن حبان .

المذهب الثانى :

قالوا: إن هذه الفواتح لها معان ثم اختلفوا فى معانيها على هذا النحو :

١ — قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هى أسماء للسور ، وقال العلامة أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى ، وعليه إطباق الأكثر،(١) وذهب إلى ذلك سيبويه ويستدل على هذا ويعتضد له ما ورد فى الصحيحين (عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى صلاة الصبح يوم الجمعة : الم السجدة وهل أتى على الإنسان) .

وقال مجاهد (فى رواية أبى حذيفة موسى بن مسعود عن شبل عن أبى نجيح عنه أنه قال — الم — اسم من أسماء القرآن)(٢) .

---

(١) الكشاف جـ١ صـ٨٣

(٢) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير جـ١ صـ٣٦

وقال الحافظ ابن كثير « ولعل هذا يرجع إلى معنى قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنه من أسماء السور فإن كل سورة يطلق عليها اسم القرآن فإنه يبعد أن يكون ـ ألمص ـ إسما للقرآن كله لأنه المتبادر إلى فهم سامع من يقول: قرأت ـ ألمص ـ إنما ذلك عبارة عن سورة الأعراف لا لمجموع القرآن. والله أعلم(١) » .

٢ — ذهب بعضهم إلى أنها من أسماء الله تعالى وبه قال : سالم بن عبد الله وإسماعيل بن عبد الرحمن السدى الكبير . وقال شعبة عن السدى « بلغنى أن ابن عباس قال ـ ألم ـ من أسماء الله الأعظم هكذا رواه ابن أبى حاتم من حديث شعبة »(٢) .

« وحكى مثله عن علىّ » فى القول الثانى عنه .

٣ — ذهب بعضهم إلى أنها قسم أقسم الله به وذهب إلى هذا عكرمة وورد عن ابن عباس فى قوله الثانى أنه قال « ألم . أنا الله أعلم »(٣) .

٤ — ورد عن أبى العالية (فى قوله ـ ألم ـ قال هذه الأحرف الثلاثة من التسعة والعشرين حرفا دارت فيها الألسن كلها ليس منها حرف إلا وهو مفتاح اسم من أسمائه وليس منها حرف إلا وهو من آلائه وليس منها حرف إلا وهو فى مدة أقوام آجالهم .

قال عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ وعجب فقال أعجب أنهم يظنون بأسمائه ويعيشون فى رزقه فكيف يكفرون به . فالألف مفتاح الله واللام مفتاح إسمه لطيف والميم مفتاح إسمه مجيد فالألف آلاء الله

---

(١) المرجع السابق (٢) المرجع السابق

(٣) المرجع السابق

واللام لطف الله والميم مجد الله. والألف سنة واللام ثلاثون سنة والميم أربعون »(١) .

الحكمة فى ورود هذه الأحرف فى أوائل السور :

لقد اختلف العلماء فى الحكمة من مجىء أحرف التهجى فى أوائل السور إلى فرق متعددة :

الفرقة الأولى : قالوا إنها ذكرت للفصل بين السور وليعرف بها أوائل السور وحكاه ابن جرير .

والذى أراه :

أن أسس هذا الرأى واهية لأن الفصل بين السور حاصل ووجود البسملة فى الكتابة وفى التلاوة يدلان على الفصل . وإن صح هذا الرأى فى بعض المواطن فلا يصلح فى بعضها فمثلا سورة النساء بدئت بقوله تعالى « يا أيها الناس اتقوا ربكم » ، وبعدها سورة المائدة بدئت بقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » ، وأتت بعدها سورة الأنعام وبدئت بقوله « الحمد لله » ، ومع هذا فصل بين الثلاثة وليس فى بدء إحداها بعض الحروف المقطعة ؛ يقول الحافظ ابن كثير معلقاً على اتجاه هذه الفرقة « وهذا ضعيف لأن الفصل حاصل بدونها فيما لم تذكر فيه وفيما ذكرت فيه البسملة تلاوة و كتابة »(٢) .

الفرقة الثانية : قالوا إن هذه الحروف وردت فى أوائل السور وهى بمثابة تنبيه لتفتح أسماع المشركين وقت أن تواصوا بالاعراض عن سماع

---

(١) المرجع السابق .
(٢) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير جـ ١ ص ٣٧

القرآن حتى إذا أصغوا إليه تلا عليهم المؤلف منه وهذا الرأى حكاه ابن جرير .

وهذا الرأى واه قال الحافظ ابن كثير « وهو ضعيف لأنه لو كان كذلك لكان ذلك فى جميع السور لا يكون فى بعضها بل غالبها ليس كذلك ولو كان كذلك لا نبغى الإبتداء بها فى أوائل الكلام معهم سواء كان افتتاح سورة أو غير ذلك ثم إن هذه السورة والتى تليها أعنى - البقرة وآل عمران - مدنيتان ليستا خطاباً للمشركين فانتقض ما ذكروه بهذه الوجوه »(١) .

الفرقة الثالثة : يقولون إن هذه الحروف دالة على معرفة المدد وأنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم واستدل أصحاب هذا الاتجاه بما « رواه محمد ابن اسحاق بن يسار صاحب المغازى حدثنى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس عن جابر بن عبـــد الله بن زياد قال : مر أبو ياسر بن أخطب فى رجال من يهود برسول الله ﷺ وهو يتلو فاتحة سورة البقرة « ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه » فأتى أخاه حيى بن أخطب فى رجال من اليهود فقال تعلمون والله لقد سمعت محمداً يتلو فيما أنزل الله تعالى عليه « ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه » فقال أنت سمعته قال نعم . قال : فمشى حيى بن أخطب فى أولئك النفر من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا يا محمد « ألم » يذكر أنك تتلو فيما أنزل الله عليك . قالوا لقد بعث الله قبلك أنبياء ما نعلمه بين لنبى مامدة ملكه وما أجل أمته غيرك . فقام حيى بن أخطب وأقبل على من كان معه فقال لهم الألف واحدة

---

(١) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير ج ١ ص ٣٧ ، ٣٨

واللام ثلاثون والميم أربعون فهذه إحدى وسبعون سنة أفتدخلون فى دين نبى إنما مدة ملكه وأجل أمته إحدى وسبعون سنة ؟ ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال : يا محمد هل مع هذا غيره ؟ فقال : نعم . قال : ماذاك ؟ قال : « ألمص » قال : هذا أثقل وأطول : الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون والصاد تسعون . فهذه إحدى وستون ومائة . هل مع هذا يا محمد غيره ؟ قال: نعم . قال : ما ذاك ؟ قال : « ألر » . قال : هذا أثقل وأطول الألف واحدة واللام ثلاثون والراء مائتان فهذه إحدى وثلاثون ومائتا سنة ، فهل مع هذا يا محمد غيره ؟ قال: نعم . قال: ماذا ؟ قال « ألمر » قال : هذه أثقل وأطول . الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون والراء مائتان فهذه إحدى وسبعون ومائتان ثم قال : لقد لبس علينا أمرك يا محمد حتى ما ندرى أقليلا أعطيت أم كثيراً ؟ ثم قال: قوموا عنه ثم قال أبو ياسر لأخيه حيي بن أخطب ولمن معه من الأحبار وما يدريكم لعله قد جمع هذا لمحمد كله »(١) .

ولقد علق الحافظ ابن كثير على هذا الحديث فقال: « فهذا الحديث مداره على محمد بن السائب الكلبي وهو ممن لا يحتج بما انفرد به ثم كان مقتضى هذا المسلك إن كان صحيحاً أن يحسب ما لكل حرف من الحروف الأربعة عشر التى ذكرناها وذلك يبلغ منه جملة كثيرة وإن حسبت مع التكرار فأطم وأعظم والله أعلم »(٢) .

الفرقة الرابعة : قالوا : لقد ذكرت هذه الحروف المقطعة فى صدر السور التى ذكرت فيها لبيان إعجاز القرآن فلقد ساق لهم هذه الحروف وهى من جنس حروفهم المفرقة التى يصوغون منها كلماتهم وهى مركبة

---

(١) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير جـ١ ص ٣٨
(٢) المرجع السابق ص ٣٨ ، ٣٩

من الحروف المقطعة التى يؤلفون منها خطاباتهم . ولقد ساق الرازى هذا فى تفسيره عن المبرد وحكاه ابن تيمية ورضيه الزمخشرى . قال الزمخشرى « ولم ترد كلها مجموعة فى أول القرآن وإنما كررت ليكون أبلغ فى التحدى والتبكيت كما كررت قصص كثيرة وكرر التحدى بالصريح فى أماكن — قال — وجاء منها على حرف واحد كقوله ص ، ن ، ق . وحرفين مثل حم . وثلاثة مثل ألم . وأربعة مثل « ألمر » وألمص » وخمسة مثل « كهيعص » حمعسق » لأن أساليب كلامهم على هذا من الكلمات ما هو على حرف وعلى حرفين وعلى ثلاثة وعلى أربعة وعلى خمسة لا أكثر من ذلك »(١) .

وهذا اتجاه صحيح .

إعراب فواتح السور المبدوءة بحروف التهجى :

لقد ورد فى فواتح السور نصف حروف المعجم وهى ثمانية وعشرون حرفا فالوارد فى القرآن هى المجموعة فى قولك « نص حكيم قاطع له سر » فالوارد فى القرآن أعظم من المتروك من الحروف فهذه الحروف الأربعة عشر مشتملة على أجناس الحـــروف من المهموسة والمجهورة والرخوة والشديدة والمطبقة والمفتوحة والمستعلية والمنخفضة(٢) وحروف التهجى

---

(١) المرجع السابق ص ٣٨

(٢) حروف الهمس مجموعة فى قوله « فحثه شخص سكت » والمجهورة ما عدا ذلك من الثمانية والعشرين حرفا والشديدة مجموعة فى قوله « أجد قط بكت » وحروف التوسط مجموعة فى قوله « لن عمر » وحروف الرخاوة هى الباقية بعد حروف الشدة والتوسط والحروف المطبقة « ص ، ض ، ط ، ظ » وحروف الانفتاح هى الباقية بعد حذف المطبقة من الحروف =

التى بدئت بها السور يوقف عليها وقف التمام إذا حملت على معنى مستقل غير محتاج إلى ما بعده فإن جعلت أسماء للسور كانت كسائر الأعلام وهو الرفع على الإبتداء أو على الخبرية أو النصب لفعل محذوف أو الجر لصحة القسم بها ، ومن لم يجعلها أسمـــاء للسور وكانت بمثابة الصوت كما ينعق بالأصوات نحو غاق فى حكاية صوت الغراب فلا محل لها من الإعراب وتكون مبنية على السكون .

ـه الثمانية والعشرين ، وحروف الإستعلاء مجموعة فى قوله « خص، ضغط، قظ » وما بقى بعد حذف حروف الاستعلاء من الثمانية والعشرين يسمى انخفاض أو استفال .

تفسير سورة لقمان

حديث عن القرآن ونعت من درجوا عليه وجزاؤهم :

قال الله تعالى (ألم ، تلك آيات الكتاب الحكيم ، هدى ورحمة للمحسنين ، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) .

المباحث العربية

« ألم » (فى موضع « ألم » ثلاثة أوجه : أحدها : الجر على القسم وحرف القسم محذوف وبقى عمله بعد الحذف لأنه مراد فهو كالملفوظ به كما قالوا الله ليفعلن فى لغة من جر ، والثانى موضعها نصب وفيه وجهان : أحدهما : هو على تقدير حذف القسم كما تقول الله لأفعلن والناصب فعل محذوف تقديره التزمت الله أى اليمين ، والثانى : هى مفعول بها تقديره « أتل » ألم ، والوجه الثالث : موضعها رفع بأنها مبتدأ ومابعدها خبر)(١).

ويجوز أن تكون «ألم» خبر مبتدأ محذوف والتقدير هذه ألم ويعرب ما بعدها على حسب موقعه من الإعراب ، فيكون اسم الإشارة مبتدأ وآيات خبره والكتاب مضاف إليها ، «تلك» اسم إشارة ، وهو مبتدأ وآيات خبره . ومعنى آيات هى جمع آية ولها معان متعددة منها العلامة ، والعبرة والدلالة والأمارة والآية من القرآن كلام متصل إلى انقطاعه ، وآيات

---

(١) إعراب مامن به الرحمن حـ ١ صـ ٢٢ ، ٢٣ هامش الفتوحات الإلهيـة .

مضاف والكتاب مضاف إليه والإضافة بمعنى من « الكتاب » فى الأصل مصدر وسمى المكتوب فيه كتابا لأن حروفه ضم بعضها إلى بعض والمراد به القرآن ، « الحكيم » صيغة مبالغة أى كثير الحكمة ، والحكمة هى إصابة الحق بالعلم والعقل ، والحكمة من الله معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الأحكام .

ومعنى « الكتاب الحكيم » أى الحكيم قائلة أو لتضمنه للحكمة أو المحكم آياته كما أخبر الله تعالى بذلك « كتاب أحكمت آياته » (١) .

«هدى ورحمة للمحسنين » هدى مبتدأ خبره ما يتعلق به الجار والمجرور للمحسنين ، أو هو خبر لمبتدأ محذوف والتقدير هو هدى ، وهو مرفوع على الوجهين بضمة مقدرة على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين كفتى ، « ورحمة » بالرفع وهى قراءة حمزة معطوفة على هدى ، وبالنصب وهى قراءة غيره تكون حالا والعامل فيه معنى الإشارة فى تلك ويجوز أن يكون حالا ثانية . والهدى : هو الدلالة الموصلة إلى البغية . والرحمة : رقة فى القلب تقتضى الإحسان ، والمراد بها هنا : أن من سار على هدايته نال رحمة الله ، «للمحسنين» جمع محسن ، وهو اسم فاعل ، ومعناه: إما أنهم يحسنون جميع أعمالهم وإما أنهم يعبدون الله كأنهم يرونه كما ورد فى حديث جبريل حين سأل الرسول ﷺ ما الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه » .

« الذين يقيمون الصلاة » بيان لبعض أوصاف المحسنين ، فهم الذين يقيمون الصلاة ومعنى يقيمونها أى يؤدونها فى أوقاتها دون الخروج عن الأوقات الخاصة بها أو أن معنى الإقامة إعطاؤها حقها متكاملة الأركان

---

(١) سورة هود آية ١

ويجوز فى اسم الموصول أن يكون مبتدأ خبره أولئك على هدى ويجوز أن يكون فى محل جر صفة للمحسنين ويجوز أن يكون فى محل نصب على المدح .

والصلاة فى اللغة الدعاء . وفى الاصطلاح : أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم بشرائط مخصوصة ، وهى هنا تشمل المفروضة والنافلة .

« ويؤتون الزكاة » يعطونها مستحقيها ، والجملة معطوفة على يقيمون الصلاة ولقد عبر بالمضارع فى يقيمون ويؤتون ، ليدل على أن ذلك يقع منهم كثيراً ويتجدد .

والزكاة فى اللغة : النماء ، وفى الاصطلاح : إخراج مال مخصوص من مال مخصوص على وجه مخصوص ، « وهم بالآخرة هم يوقنون » هم مبتدأ خبره يوقنون وبالآخرة جار ومجرور يتعلق وهى الضمير الثانى ضمير فصل لا محل له من الإعراب أو هو مبتدأ والجملة بعده خبره والجملة من المبتدأ والخبر فى محل رفع خبر المبتدأ الأول ، والآخرة صفة للحياة الآخرة وهى مؤنث الآخر ووصفت الحياة الآخرة بهذا الوصف لأنها تلى الحياة الدنيا ولا شىء بعدها بل خلود فى النعيم أو فى الجحيم .

« يوقنون » يصدقون، ولقد عبر بالمضارع ليدل على أن إيمانهم يتجدد من زيادة إلى زيادة فهو يزداد ولا ينقص.

ولقد ساق الله هذه الأمور الثلاثة وهى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان بالآخرة لأنها عمدة العبادات .

« أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

هذا كلام مستأنف جىء به لبيان جزاء المحسنين، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويصدقون بالآخرة .

ويجوز أن يكون متصلا بما قبله فيكون خبراً لاسم الموصول وإذا كان مستأنفاً يكون فى الكلام سؤال نشأ كيف حال هؤلاء المحسنين المتصفين بتلك الأوصاف فقيل « أولئك على هدى من ربهم » والاستعلاء الوارد فى هذه الجملة ونظائرها مثل لتمكنهم من الهدى وتمسكهم به والسير على منهجه .

فلقد شبهت حالهم بحال من أعتلى الشىء وركبه ، فالمعتلى للشىء يكون أشد تمكناً من غيره ، فهم على نور من ربهم وبرهان واستقامة « وأولئك هم المفلحون » أى الفائزون بما أعده الله لهم ، وفى هذه الجملة أسلوب قصر حيث عرف الطرفين المبتدأ والخبر ، أى الفائزون به دون غيرهم .

معنى الآيات

هذا القرآن معجز لسائر الخلق،وآياته هداية ورحمة للمؤمنين المحسنين، فهذه حال آياته الأصيلة الدائمة ، فهو يهديهم إلى طريق الله الذى لا يضل سالكه ، ورحمة لهم بما يسكبه فى قلوبهم من الروح والطمأنينة والقرار ، وهؤلاء المحسنون يداومون على إقامة الصلاة فهى نور لهم ، ويسارعون فى إيتاء الزكاة فهى برهان على قوة إيمانهم ، وبالآخرة يصدقون فهى دار نعيمهم ، وهؤلاء المحسنون بلغوا شأواً بعيداً فى سمومنازلهموعلومراتبهم لأنهم على نور من ربهم واستقامة ، وهم الظافرون بنعيم الله وحنانه .

سلوك بعض المشركين قبل آيات الله وجزاؤهم

(ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين، وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم).

مناسبة الآيات بما قبلها

لقد سبق حديث عن القرآن بأن آياته تتضمن الحكمة وأنه هدى ورحمة للمحسنين، الذين شغلوا به وترجموا منهجه إلى سلوك واقعى. فطفقوا يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويصدقون بالآخرة . ثم أعقب ذلك بالحديث عن بعض سلوك الكفرة قبل القرآن فصدفوا عنه وشغلوا بلهو الحديث واتخذوا آياته هزوا .

المباحث العربيه

« ومن الناس من يشترى » من الناس مبتدأ على معنى من أى بعض الناس وأسم الموصول خبره « من يشترى » . أو أن اسم الموصول مبتدأ والجملة بعده صلته . و « من الناس» خبره . والناس قيل أصله أناس فحذفت الهمزة لما دخلت على الكلمة الألف واللام. وقيل أصله من « ناس » ينوس إذا أضطرب والمراد بهم بنو آدم وقد تطلق الكلمة ويراد بها الفضلاء من البشر . « يشترى لهو الحديث » يشترى يحتمل وجهين :

١ — يحتمل أن يكون على الحقيقة وهو الشراء المعروف بثمن . ولقد قال أبو أمامة قال رسول الله ﷺ : « لا يحل بيع المغنيات ولا شراؤهن ولا التجارة فيهن ولا أثمانهن . وفيهن نزلت هذه الآية « ومن الناس من يشترى لهو الحديث » (١).

---

(١) تفسير الطبرى ح ٢١ ص ٣٩

٢ — يحتمل أن يكون الشراء مجازى وهو الاستحباب · روى عن قتادة أنه قال « قوله « ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم » والله لعله أن لا ينفق فيـــه مالا ولكن اشتراؤه استحبابه بحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق وما يضر على ماينفع » (١) .

ولقد رجح ابن جرير المعنى الحقيقى فقال « وأولى التأويلين عندى بالصواب تأويل من قال معناه الشراء الذى هو بالثمن وذلك أن ذلك أظهر.

معنييه » (٢) .

« لهو الحديث » اللهو : هو مايشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه ،واللعب هو الفعل غير المقصود به مقصداً صحيحا . والإضافة فى لهو الحديث بمعنى من ، ولقد اختلف أهل التأويل فى كلمة الحديث ، فقال بعضهم هو الغناء والاستماع له وذهب إلى هذا عبد الله بن مسعود «عن أبى الصهباء البكرى أنه سمع عبد الله بن مسعود وهو يسأل عن هذه الآية « ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم فقال عبد الله : الغناء والذى لا إله إلا هو يرددها ثلاث مرات » (٣) .

وذهب إلى هـذا ابن عباس ومجاهد فى أحد قوليه وعكرمة . ولقد ذهب آخرون إلى أنه الطبل ومن هؤلاء مجاهد، وذهب الضحاك إلى أنه الشرك.

« ليضل عن سبيل الله بغير علم » اللام للتعليل وقرىء بضم الياء . أى ليضل غيره فهو ضال فى نفسه مضل لغيره « عن سبيل الله » أى عن

---

(١) المرجع السابق

(٢) المرجع السابق

(٣) المرجع السابق

طريق الإسلام والسبيل تذكر وتؤنث « بغير علم » الجار والمجرور حال . والمعنى بغير بصيرة حيث لم يستطع التمييز بل استبدل الضلالة بالهدى والباطل بالحق . « ويتخذها هزوا » الفعل يتخذ يجوز أن يكون منصوبا بالعطف على « ليضل » ويجوز فيه الرفع عطفا على يشترى ، ويجوز أن تكون الواو للاستئناف فيكون مرفوعا . والضمير المنصوب فيه « يتخذها » يعود على الآيات أو السبيل « هزوا » أى مهزوءا بها .

ولقد التمس بعض العلماء لهذه الآية سبب نزول (وقد أخرج البيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله « ومن الناس من يشترى لهو الحديث » يعنى باطل الحديث . وهو النضر بن الحارث بن علقمة أشترى أحاديث الأعاجم وصنيعهم فى دهرهم وكان يكتب الكتب من الحيرة إلى الشام ويكذب القرآن »(١) .

يقول الزمخشرى « فإن قلت : القراءة بالضم بينة لأن النضر كان غرضه باشتراء اللهو أن يصد الناس عن الدخول فى الإسلام واستماع القرآن ويضلهم عنه فما معنى القراءة بالفتح ؟ قلت فيه معنيان :

أحدهما : ليثبت على ضلاله الذى كان عليه ولا يصرف عنه ويزيد ليضل ويمده فإن المخذول كان شديد الشكيمة فى عداوة الدين وصد الناس عنه .

والثانى : أن يوضع ليضل موضع ليضل من قبل أن من أضل كان ضالا لا محالة فدل بالرديف على المردوف »(٢) .

---

(١) فتح القدير جـ ٤ ص ٢٣٦

(٢) الكشاف جـ ٣ ص ٢٣٠

« أولئك لهم عذاب مهين » أسم الإشارة هنا يدل على عظم عذابهم وأن عذابهم ذو إهانة لهم .

لطيفه :

لقد سبق أن قال الله « ومن الناس من يشترى » فمن فى قوله « من يشترى موصولة ولها معنيان من حيث الإفراد والجمع .

الأول : الإفراد وذلك مراعاة للفظها ولذلك روعى معنى اللفظ فى ضمائر متعددة فى فاعل « يشترى » وفاعل « ليضل » وكذلك فاعل « يتخذها » . وقوله « وإذا تتلى عليه » ، وقوله « ولى مستكبراً » ، وقوله « كأن لم يسمعها » ، وقوله « كأن فى أذنيه وقرا » وقوله « فبشره » .

الثانى : الجمع وذلك مراعاة لمعناها ولذلك هذا فى موضعين :

« أولئك » وقوله « لهم عذاب » .

« وإذا تتلى عليه آياتنا » بنى الفعل للمجهول ليدل على العموم من القراء فيشمل الرسول ﷺ وغيره والمراد بالآيات الآيات التنزيلية ، والإضافة فى آياتنا للتشريف . « ولى مستكبرا » أدبر مبالغاً فى استكباره ومستكبراً حال من الضمير الفاعل فى ولى . « كأن لم يسمعها » حال ثانية ويجوز أن تكون الجملة مستأنفة . شبه توليه وهو لا يعبأ بالآيات بعدم السماع ، ووجه الشبه عدم الانتفاع فى كل .

كأن فى أذنيه وقرا » حال ثالثة أو بدل الحال الثانية ويجوز أن تكون جملة مستأنفة ، والوقر هو الثقل فى الأذن فيمنع من السماع .

ولقد اتصف هذا الصنف بأوصاف متعددة هى :

(أ) التولية عن الآيات التنزيلية الحكيمة ، وهذا ما يدل على الغباء والجهل .

(ب) الاستكبار والمبالغة فيه .

(ج) كأنه لم يسمعها لعدم مبالاته بها وكأن فى أذنيه وقراً .

« فبشره بعذاب أليم » الفاء واقعة فى جواب شرط محذوف والتقدير إذا كان حاله كذلك فبشره .

ولقد ذهب بعض العلماء إلى البشارة والبشرى للخبر السار .

وذهب بعضهم إلى أنها مطلق الخبر فيشمل الخبر السار وغـيره وإذا فسر الأمر فى هذه الآية على أن البشارة هى الخبر السار فيكون هذا على سبيل التهكم . والمعنى أعلمه بعذاب مبالغ فيه بالإيلام .

معنى الآيات

وبعض الناس من الكفرة يشترى بمـــاله وبوقته لهو الحديث ويبذل هذه الأثمـان الغالية فى لهو رخيص ، يفنى عمره المحدود الذى لا يعاد ولا يعود .

يشترى هذا اللهو ليستمر على ضلاله ويضل غيره فهو جاهل وسلوكه عن جهل وليس عن علم ولا ينبىء عن حكمة ، وهو سيىء الأدب لأنه يستهزىء بآيات الله القرآنية ويسخر منها . ومن هذا المنطلق يجازيهم الله جزاء من جنس أعمالهم فهؤلاء لهم عذاب يهينهم . ومن خصال هذه الطائفة السيئة أنهم إذا تليت عليهم آيات القرآن التى تأسر القلوب وتجـذب الألباب ولوا مستـكبرين معرضين مدبرين كأن لم يسمعوها وكأن فى آذانهم ثقلا يحجب الآيات عن الأفهام . ثم يأتى التهكم بهم بأنهم يبشروا بعذاب أليم .

سلوك المؤمنين قبل آيات الله وجزاؤهم :

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم ، خالدين فيها وعد الله حقاً وهو العزيز الحكيم):

مناسبة الآيتين بما قبلهما :

لقد سبق أن تحدث الله عن سلوك الكافرين تجاه الله وفى هاتين الآيتين شرع يذكر سلوك المؤمنين إثر الحديث عن سلوك بعض المشركين .

المباحث العربية

« إن الذين آمنوا » إن واسمها وخبرها لهم جنات النعيم . « آمنوا » أى صدقوا بآيات الله . « وعملوا الصالحات » ترجموا آيات الله ومنهجه إلى واقع عملى هو العمل الصالح . ولذلك عطف جملة وعملوا على آمنوا .

« الصالحات » يجوز أن تكون مفعولا به لعملوا ويجوز أن تكون صفة لمفعول محذوف والتقدير عملوا الأعمال الصالحات . « لهم جنات النعيم » أصل هذه الجملة لهم نعيم الجنات فعكسه للمبالغة فى النعيم ، والنعيم هو النعم الكثيرة .

يقول الفخر الرازى رحمه الله فى الآيات السابقة المتحدثة عن المشركين وهذه الآيات المتحدثة عن المؤمنين . وهناك لطائف .

إحداها : توحيد العذاب — فى الآيات الأولى — وجمع الجنات إشارة إلى أن الرحمة واسعة أكثر من الغضب .

الثانية : تنكير العذاب وتعريف الجنة بالإضافة إلى المعرف .إشارة

إلى أن الرحيم يبين النعمة ويعرفها إيصالا للراحة إلى القلب ولا يبين النقمة وإنما ينبه عليها تنبيها .

الثالثة : قال : عـذاب ولم يصرح بأنهم فيه خالدون وإنما أشار إلى الخلود بقوله «مهين» . وصرح فى الثواب بالخلود بقوله « خالدين فيها » .

الرابعة : أكد ذلك بقوله « وعد الله حقا » ولم يذكره هناك .

الخامسة : قال هناك لغيره « فبشره بعذاب » وقال ههنا « وعد الله » ثم لم يقل أبشركم به لأن البشارة لا تكون إلا بأعظم ما يكون لكن الجنة دون ما يكون للصالحين بشارة من الله وإنما تكون بشارتهم منه برحمته ورضوانه كما قال تعالى « يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم » (١) .

« خالدين فيها وعد الله حقا وهو العزيز الحكيم » :

« خالدين » حال من الضمير فى عملوا وقرىء خالدون على أن الكلمة خبر ثان لإن فى قوله « إن الذين » . « وعد الله حقا » وعد مصدر مؤكد لنفسه أى وعد الله وعد الله : « حقا » مصدر مؤكد لغيره وهو مضمون الجملة والتقدير وحق ذلك حقا ، والحق هو الثابت الذى لا يعتريه التغيير .

والمعنى : أن وعد الله كائن لا محالة فيه ولا يتخلف ، والوعد يكون فى الخير والشر بخلاف الوعيد فإنه يكون فى الشر خاصة .

« وهو العزيز الحكيم » هـذه الجملة مستأنفة معللة لما سبق فلقد وعد ووعده حقا لأنه عزيز لا يغلبه غالب فلا يمنعه أحـد من عدم تحقيق ماوعد به ، الحكيم فى كل أقواله وأفعاله والذى لا يضع شيئا إلا فى محله .

---

(١) تفسير الفخر الرازى حـ٢٥ صـ١٤٢

معنى الآيتين

إن الذين قبلوا آيات الله وصدقوا بهـــا وترجموا منهج الله إلى عمل فليست العقيدة حقيقة مجردة فى القلب بل هى حية فبعد تملكها من القلب تترجم المبادىء والمناهج إلى آثار بارزة فى عالم الواقع . وثمرة إيمانهم وعملهم جنات النعيم خالدين فيها لا ينقطع نعيمهم ، ولا ينقطعون عنه بالموت . وذلك ماوعد الله بوقوعه وهو حق فهو القادر على تحقيق وعده الحكيم فى خلقه ووعده .

آيات على عزة الله ووحدانيته وكمال قدرته وكمال علمه :

(خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم . هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين » .

مناسبة الآيتين بما قبلهما :

سبق أن قال الله فى نهاية الآيتين الآنفتين « وهو العزيز الحكيم » .
ثم شرع فى هاتين الآيتين فى ذكر الدلائل التى تدل على عزته ووحدانيته وقدرته وعلمه .

المباحث العربية

« خلق السموات بغير عمد ترونها » هذه الجملة مستأنفة . والخلق هو الإيجاد بعد عدم وعلى غير مثال سابق ، والسموات : كل ما علا فتشمل الكواكب والنجوم وتشمل السماء التى ينزل منها الأمر والنهى . «بغير عمد» حال من السموات و «عمد» جمع عماد كأهب جمع إهاب . والعماد كل ما يعمد به الشىء أى يسند به كما يقال عمدت الحائط إذا دعمته .

« ترونها » يحتمل فى هذه الجملة ثلاثة أوجه :

١ — يحتمل أن تكون فى محل جر صفة لعمد . أى أن هناك عمدا ، ولكن لا ترى .

٢ — يحتمل أن تكون فى محل نصب على الحال ، أى ولا عمد البتة .

٣ — يحتمل أن تكون مستأنفة فتكون فى محل رفع . أى ولا عمد. فيجوز عود الضمير على العمد . ويجوز عوده على السموات . « وألقى فى الأرض رواسى » أى ألقى بنظام وعلم فى الأرض جبالا ثوابت . «أن تميد بكم» هذه الجملة فى محل نصب على العلة والمعنى كراهة أن تميد بكم ولقد قدر الكوفيون لئلا تميد. والميدان هو الحركة والاضطراب . « وبث فيها من كل دابة » هذه الجملة معطوفة على الجملة السابقة . والبث هو التفريق والنشر و «من » بيانيه . وكل لفظ يدل على العموم ، ودابة كل ما يدب على الأرض . والمعنى : بث فيها من كل نوع من أنواع الدواب.« وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم » أى وأنزلنا من السماء ماء. وفى قوله « من السماء » مجاز مرسل علاقته الجهة « وأنزلنا من السماء » التفات من الغيبة إلى التكلم .

يقول الرازى فى سر هذا الالتفات ، والعدول من المغايبة إلى النفس فيه فصاحة وحكمة . أما الفصاحة فمذكورة فى باب الالتفات من أن السامع إذا سمع كلاما طويلا من نمط واحد ثم ورد عليه نمط آخر يستطيبه ألا ترى أنك إذا قلت قال زيد كذا وكذا وقال خالد كذا وكذا وقال عمرو كذا ثم إن بكراً قال قولا حسنا يستطاب لما قد تكرر القول مراراً . وأما الحكمة فمن وجهين :

أحدهما : أن خلق الأرض ثقيل والسماء فى غير مكان قد يقع لجاهل أنه بالطبع . وبث الدواب يقع لبعضهم أنه باختيار الدابه لأن لها اختياراً فنقول الأول طبيعى والآخر اختيارى للحيوان .

ولكن لا يشك أحد فى أن الماء فى الهواء من جهة فوق ليس طبعاً فإن الماء لا يكون بطبعه فوق ولا اختيارا إذ الماء لا اختيار له فهو بإرادة الله تعالى فقال « وأنزلنا من السماء » .

الثانى : هو أن إنزال الماء نعمة ظاهرة متكررة فى كل زمان متكثرة فى كل مكان فأسنده إلى نفسه صريحاً ليتنبه الإنسان لشكر نعمته فيزيد له من رحمته »(١) .

« فأنبتنا فيها من كل زوج » أى أنبتنا فيها كل صنف وجنس : فالمراد بالزوج الصنف والجنس ووصف بالكريم وهو النفيس الغالى لحسن لونه وجمال منظره وكثرة منافعه. ولقد ذهب بعض العلماء إلى أن المراد بالزوج الناس فالكريم منهم من يصير إلى الجنة واللئيم من يصير إلى النار ، والأول أولى .

« هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه » إسم الإشارة مشار به إلى ما مر من خلق السموات وإنزال الماء وإنبات الأرض .

واسم الإشارة مبتدأ وخبره «خلق الله» ومعنى المصدر على وزن مفعول أى هذا مخلوق الله كقولهم « درهم ضرب الأمير » أى مضروبه . والفاء واقعة فى جواب شرط مقدر والتقدير إن عرفتم ذلك فأرونى والفعل أرونى ينصب ثلاثة مفاعيل : الأول : الياء وجملة الاستفهام سادة مسد . الثانى والثالث : وفى قوله « فأرونى » التفات من الغيبة إلى الخطاب . « ماذا خلق الذين من دونه » الاستفهام مراد به التبكيت والتوبيخ والتقريع . والمراد بالذين من دونه الأصنام التى اتخذوها آلهة «بل الظالمون فى ضلال مبين » «بل » حرف للاضراب: فإن تلاها جملة فيكون الإضراب أحد أمرين :

١ — إضراب إبطالى وهو أن ما بعدها يبطل ماقبلها كما فى قوله تعالى

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٢٥ صـ ١٤٣ - ١٤٤

« وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون »(١) وقوله تعالى« أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق »(٢) .

٢ — إضراب انتقالى وهو الانتقال من غرض إلى غرض كأن يكون ما قبل بل مقرر وما بعدها مقرر كما فى هذه الآية التى معنا وكقوله تعالى « قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى بل تؤثرون الحياة الدنيا »(٣) .

وكقوله تعالى « ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون . بل قلوبهم فى غمرة »(٤) .

ولقد آثر التعبير بالظاهر وهو « الظالمون » على التعبير بالضمير بل هم فى ضلال مبين . للتسجيل عليهم بالظلم أى أن شركهم فى قمة الظلم .

« فى ضلال مبين » الضلال هو العدول عن الطريق المستقيم. ويضاده الهداية فقرر ظلمهم أولا وضلالهم ثانيا . ولقد وصف ضلالهم بالظهور والوضوح ، ومن كان هذا دينه فلا يعقل الحجة ولا يهتدى إلى الصراط المستقيم .

---

(١) سورة الأنبياء آية ٢٦
(٢) سورة المؤمنون آية ٧٠
(٣) سورة الأعلى آية ١٤ — ١٦
(٤) سورة المؤمنون آية ٦٢ ، ٦٣

معنى الآيات

ومن الآيات الدالة على كمال عزة الله تعالى ووحدانيته وقدرته وعلمه ما يراه الإنسان من خلق السموات والأرض سواء كانت الكواكب والنجوم وما يتبعها أو كانت السموات التى ينزل منها تدبير أمر الخلائق فهى ضخمة هائلة معلقة بقدرة الله تعالى فى الفضاء بغير عمد تحافظ على جريانها فى مداراتها وبمجرد التأمل فيها يرتعش الكيان الإنسانى أمام هذا الكون الهائل القائم على نظام عجيب يسير فى تناسق بديع . وخلق وأرسى فى الأرض الجبال فهى مرتفعات هائلة تقابل المنخفضات العميقة وهى موزعة توزيعاً بحكمة لا تضطرب حركة الأرض .

ونشر وفرق فيها كل دابة . وأنزل الماء من السحاب فتمتلىء الأنهار وتجرى الجداول فتقوم حياة النبات الكريم عليه فتحيا الأرض وما عليها، هذه مخلوقات الله فأرونى ماذا خلق آلهتكم بل الكافرون الظالمون فى ضلال بين ظاهر .

لمحات علمية

أولا : لقد قال الله تعالى : « وألقى فى الأرض رواسى » فكلمة رواسى جمعاً . ووردت كذلك فى قوله تعالى : « وجعل فيها رواسى من فوقها »[١] .

وقوله « وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج »[٢] .

---

(١) سورة فصلت آية ١٠
(٢) سورة ق آية ٧

وورد فعلا ماضيا كما فى قوله تعالى « والجبال أرساها »(١) .

والكلمة سواء كانت إسما مجموعا أو فعلا فإنها تجود بمعنى هو ثبت « رسا رسوا ، رسوا ثبت . كأرسى السفينة وقفت على الأنجر »(٢) .

فالأنجر مرساة السفينة ووصف الجبال بالرواسى وأرساها يدل على سيولة جو فى الأرض وإن الجبال رست فوق هذه السيولة . كما ترسو السفينة فى المرفأ ووضعت الجبال هكذا حتى تحفظ توازن الأرض ولا تضطرب الأرض .

يقول الأستاذ انجلان : « ومن المفهوم الآن أن المادة الأقل وزنا ارتفعت على سطح الأرض على حين أصبحت أمكنة المادة الثقيلة خنادق هاوية والتى هى نراها فى شكل البحار . وهكذا استطاع الارتفاع والانخفاض أن يحافظا على توازن الأرض »(٣) .

ثانياً : قال الله تعالى فى الآية التى نحن بصددها : « وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم » .

وقال « وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » .

وقال « أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها . متاعاً لكم ولأنعامكم » .

---

(١) سورة النازعات آية ٣٢
(٢) القاموس المحيط ج ٤ ص ٣٣٦
(٣) الإسلام يتحدى ص ١٢٨ ، ١٢٩

فنجد عقيب الحديث عن الجبـال يتحدث الله عن الماء أو عن أثر الماء وهو الإنبـات أو سقيا الحيوان لأن الله جل ذكره جعل الجبـال سامقة شامخة ولهذا الشموخ والارتفـاع غرضه الذى أنشىء من أجله فالجبـال بشموخها الهائل تعترض الرياح المحملة ببخار الماء فترتفع الرياح إلى أعلى الجبال فتتكاثف لأن درجة الحرارة تنخفض كلما ارتفعنا إلى أعلى فتسقط الأمطار وهو مايسمى عند علماء الجغرافيـا بالمطر التضاريسى ومن جهة أخرى فإن شموخ الجبال يجعل قمتها فى مكان منخفض الحرارة فتتكون الثلوج فتتوج قمتها وفى الصيف حينما ترتفع الحرارة يذوب الثلج فتجرى على أثرها الأنهار والوديان .

قصة لقمان

(ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنى حميد . وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابنى لاتشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم . ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلىّ ثم إلىّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون . يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير . يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ماأصابك إن ذلك من عزم الأمور . ولا تصعّر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحاً إن الله لايحب كل مختال فخور . واقصد فى مشيك واغضض من صـــوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) .

مناسبة الآيات بما قبلها :

قال الله تعالى قبل هذه الآيات « هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين » فهذه الآيات تدحض الشرك بأدلة آفاقية كونية فهذا الخلق ينطق لخالقه بالتوحيد بيد أن غير الله لم يخلق شيئاً ثم أتت آيات لقمان لترسخ التوحيد وتنفى الشرك .

اسم لقمان :

اختلف العلماء فى اسمه إلى أقوال ثلاثة :

القول الأول : إنه عربى واسمه مشتق ويجوز أن يكون من (لقمت

الطعام ألقمه وتلقمته) (١) وعلى ضوء ذلك يكون ممنوعا من الصرف للعلمية وزيادة الألف والنون كعثمان وعفان .

القول الثانى : هو أعجمى فيكون ممنوعا من الصرف للعلمية والعجمه .

وذهب ابن كثير إلى أنه لقمان بن عنقاء بن سدون وذهب إلى هـــذا السهيلى . وذهب أبو السعود إلى أنه لقمان بن باعوراء من أولاد آزر وهو ابن أخت أيوب عليه السلام .

وقال الشوكان : هو لقمان بن باعوار ابن ناحور بن تارخ وهو آزر والد ابراهيم .

واختلف فى جنسيته فقيل كان حبشياً (عن ابن عباس قال : كان لقمان عبداً حبشياً)(٢).

وقيل كان نوبياً وذهب إلى هذا سعيد بن المسيب (عن عبد الرحمن ابن حرملة قال جاء أسود إلى سعيد بن المسيب يسأله فقال له سعيد لا تحزن من أجل أنك أسود فإنه كان من خير الناس ثلاثة من السودان بلال ومهجع مولى عمر بن الخطاب ولقمان الحكيم كان أسود نوبيا ذا مشافر)(٣) وقيل كان فى بنى اسرائيل وكان فى زمن داود عليه السلام (عن مجاهد قال : كان لقمان الحكيم عبداً حبشياً غليظ الشفتين مصفح القدمين قاضيا على بنى إسرائيل)(٤).

---

(١) المفردات فى غريب القرآن ص ٦٨٤ .

(٢) تفسير الطبرى جـ ٢١ ص ٤٣ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) المرجع السابق .

وقيل كان يعمل نجاراً وقيل كان راعياً للغنم وقيل عاش ألف سنة وأخذ العلم عن أيوب . واختلف هل هو نبي أم لا . ؟ فجمهور العلماء على أنه عبد آتاه الله الحكمة وليس نبياً ولم يقل بنبوته إلا عكرمة(١).

وفى قصة لقمان معالم متعددة وهى على هذا النحو :ـ

(١) المرجع السابق حـ ٢٢ ص ٤٤ .

إيتاء الله الحكمة للقمان :

(ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنى حميد) .

المباحث العربية

« ولقد » الواو للاستئناف واللام لام القسم وقد حرف تحقيق «آتينا» أعطينا « الحكمة » فسرها جمهور على أنها الفقه فى الدين والعقل والإصابة فى القول .

وقال أبو السعود (والحكمة فى عرف العلماء استكمال النفس الإنسانية باقتباس العلوم النظرية واكتساب الملكة التامة على الأفعال الفاضلة على قدر طاقتها)(١) .

« أن اشكر لله » «أن» يجوز أن تكون زائدة ويجوز أن تكون مفسرة لأن فى إيتاء الحكمة معنى القول . « ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه » الواو للاستئناف والجملة بعدها مستأنفة مقررة لما قبلها وجوب امتثال الأمر بالشكر وعبر بالمضارع ليفيد التجدد والحدوث ومعنى الشكر هو الثناء باللسان وبالجنان على نعمة وصلت من منعم على منعم عليه . والفرق بين الشكر والحمد والمدح . أن الشكر يكون ثناء من أجل نعمة حلت بمنعم عليه والحمد هو الثناء على من هو أهل للثناء . والمدح هو الثناء على العاقل وغير العاقل لذلك كان الحمد أعم من الشكر والمدح .

ومعنى « ومن يشكر إنما يشكر لنفسه » ومن يشكر الله فإن ثواب شكره راجع إلى نفسه لا إلى غيره . وهذا أسلوب قصر حيث قصر ثواب الشكر على نفس الشاكر لا يتعداه إلى غيره . « ومن كفر فإن الله غنى حميد »

---

(١) تفسير أبى السعود حـ ٥ صـ ٢٨٩ .

أى ومن جحد النعمة وأنكر شكرها « فإن الله غنى » عن خلقه « حميد » محمود على صنعه . أى هو أهل لأن يحمد .

معنى الآيـــة

يبدأ نسق الآيات فى هذه السورة يعالج قضية الشكر لله وحده وهذا ضرب من الدعوة إلى التوحيد فلقمان اختاره القرآن ليعرض بلسانه قضية التوحيد فالله منحه الحكمة وأمره بالشكر فالذى يشكر الله إنما يدخر رصيداً ينفعه ولا يتعداه هذا الرصيد إلى غيره ومن جحد النعم فإن الله غنى عنه وهو قمن بالحمد والثناء .

مواعظ لقمان

أولا : نهيه عن الشرك :

(وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) .

المباحث العربية

« وإذ قال لقمان لابنه » الواو عاطفة عطفت هذه الجملة على جملة « وآتينا » والمعنى : وآتينا لقمان الحكمة حين جعلناه شاكراً فى نفسه وحين جعلناه واعظاً لغيره . « وإذ » عاملها محذوف والتقدير اذكر .

وقال الزجاج « إذ » فى موضع نصب بآتينا . والمعنى ولقد آتينا لقمان الحكمة إذ قال . قال النحاس : وأحسبه غلطا لأن فى الكلام واو وهى تمنع من ذلك) (١) .

« لابنه » جار ومجرور متعلق بالفعل واسم ابنه ثاران وقيل ماثان وقيل مشكم وقيل أشكم وقيل أنعم وقيل باران .

« وهو يعظه » الواو واو الحال والجملة حالية . والوعظ (زجر مقترن بتخويف وقال الخليل : هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب)(٢).

« يابنى » تصغير والكلمة أصلها بنو وبعدالتصغير تصر بنيو على وزن فعيل . سبقت الياء الواو فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء فى الياء فصارت

---

(١) فتح القدير جـ ٤ صـ ٢٣٧ .
(٢) المفردات فى غريب القرآن صـ ٢٧، ٢٨ .

« بنى » . « لا تشرك بالله » هـذا نهى عن اتخاذ شريك مع الله تعـالى « إن الشرك لظلم عظيم » هذه الجملة مستأنفة تعليلية للنهى السابق . وهى مؤكدة بمؤكدات ثلاثة : إن ، واسمية الجملة ، واللام . وهذه الجملة من كلام لقمان .
فلقد ورد عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه (قال لما نزلت هذه الآية الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا أينا لم يلبس إيمانه بظلم فقال رسول الله ﷺ إنه ليس بذاك ألا تسمع إلى قول لقمان لابنه : « إن الشرك لظلم عظيم) (١)

(١) صحيح البخارى بحاشية السندى حـ ٣ ص ١٧٣ .

دعوة الأبناء إلى بر الآباء :

(ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) .

سبب نزول هذه الآيات

روى المفسرون أن هذه الآيات نزلت فى سعد بن أبى وقاص لما أسلم وهددته أمه بالإضراب عن الطعام حتى يعود إلى دين آبائه وأجداده فأبى يقول الطبرى (وذكر أن هذه الآية نزلت فى شأن سعد بن أبى وقاص وأمه ، ذكر الرواية الواردة فى ذلك . حدثنا هناد بن السرى قال ثنا أبو الأحوص عن سماك بن حرب عن مصعب بن سعد قال حلفت أم سعد أن لاتأكل ولا تشرب حتى يتحول سعد عن دينه قال فأبى عليها فلم تزل كذلك حتى غشى عليها قال فأتاها بنوها فسقوها قال فلما أفاقت دعت الله عليه فنزلت هذه الآية « ووصينا الإنسان بوالديه » إلى قوله « فى الدنيا معروفا » (١)) وقيل نزلت فى سعد بن مالك (قال سعد بن مالك نزلت فى « وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا » .

قال . لما أسلمت . حلفت أمى لا تأكل طعاما ولا تشرب شرابا قال فناشدتها أول يوم فأبت وصبرت فلما كان اليوم الثانى ناشدتها فأبت فلما

---

(١) تفسير الطبرى ج ٢١ ص ٤٥ .

كان اليوم الثالث ناشدتها فأبت فقلت والله لو كانت لك مائة نفس لخرجت قبل أن أدع دينى هذا فلما رأت ذلك وعرفت أنى لست فاعلا أكلت)(١) .

المباحث العربية

هذا كلام مستأنف معترض به على نهج الاستطراد أثناء وعظ لقمان لولده وهو مؤكد للنهى عن الشرك .

« ووصينا الإنسان بوالديه » أى أبوه وأمه .

« حملته أمه » إلى قوله فى « عامين » معترضـه بين المفسر بفتح السين وتشديدها وهو « ووصينا الإنسان بوالديه » وبين المفسر بكسر السين وتشديدها وهو « أن اشكر لى ولوالديك » .

« وهناً على وهن » يجوز أن يكون حالا من أمه والمعنى ذات وهن ويجوز أن يكون مصدراً مؤكداً لفعل هو الحال أى تهن وهنا . « على وهن » صفة للمصدر أى كائناً على وهن . والمعنى ضعفاً على ضعف فالحمل ضعف وآلامه كثيرة . فالمرأة لا تستريح فى طعام ولا شراب ويعتريها الدوار ، وتصاب بالغثيان وتخور قوتها وتقل حركتها وعند الوضع ترى الشدائد فمنذ حمله إلى وضعه تنتقل من ضعف إلى ضعف ومن شدة إلى شدة .

«وفصاله فى عامين » أى وفطامه من الرضاع فى انقضاء عامين وترك ذكر الانقضاء لدلالة الكلام عليه ، كما قال تعالى (واسأل القرية التى كنا فيها)(٢) فالمراد أهل القرية .

---

(١) المرجع السابق
(٢) سورة يوسف آيه ٨٢

« أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير » يجوز فى أن وجهان : الأول : أنها مفسرة . والثانى : أنها وما دخلت عليها مصدر فى محل نصب بوصينا والمعنى ووصينا الإنسان بوالديه الشكر لى ولوالديه . (قال سفيان ابن عيينة فى هذه الآية من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله تعالى ومن دعا للوالدين فى أدبار الصلوات الخمس فقد أشكر للوالدين)[1] .

« إلى المصير » هـذا تعليل لوجوب الامتثال والمعنى إلى الرجوع لا إلى غيرى فأثيبك على شكرك وأعاقبك على كفرك .

« وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم »

« وإن جاهـداك » وإن أفرغا مافى وسعك من مقاومتهما « على أن تشرك بى ما ليس لك به علم » أى لا تشرك بى ماليس بإله فيكون لك علم بالألوهية . فيكون قد عبر بنفى العلم عن نفى المعلوم . أو تفسر هذه الآية بما يأتى :

« وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم » أى وإن جاهداك على أن تتخذ معى شريكاً ماليس لك به علم فلا تتخذ هذا الشريك وكذلك مالك به علم لأنه إذا انتفى مالا علم به فمن باب أولى ينتفى ماله به علم . « فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا » الفاء واقعة فى جواب الشرط لأن الجملة فعلها طلبى « معروفا » المعروف ما عرف حسنه من شرائع الله ومناهجه . ويجوز فى إعرابه وجهان :

الأول أنه صفة لمصدر محذوف والتقدير وصاحبهما صحابا معروفا .

الثانى : أنه منصوب على نزع الخافض والتقدير وصاحبهما بمعروف وهو ما يقتضيه الشرع وتقتضيه المروءة ، « واتبع سبيل من أناب إلى »

---

(١) الفتوحات الإلهيه جـ٣ ص ٤٠٥

أى اتبع طريق الذين رجعوا إلى بالتوحيد والاخلاص فى الطاعة . ثم إلى مرجعكم ، عبر بثم التى تفيد التراخى لوجـــود فسحة ووقت فى أعمار الخلق وهذا الأسلوب أسلوب قصر حيث تقدم الخبر على المبتدأ والمعنى ثم إلى لا إلى غيرى مرجعكم . « فأنبئكم بما كنتم تعملون » الفاء للترتيب « فأنبئكم » فأخبركم « بما كنتم تعملون » بالذى كنتم تعملونه ، وعبر بالمضارع فى قوله « تعملون » لاستحضار الصورة فى الذهن فكأن الذى عملوه فى الدنيا يأتى يوم القيامة كأنهم يباشرونه .

لفت انتباه الابن إلى علم الله تعالى .

(يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير)

المباحث العربيه

« إنها إن تك مثقال حبة من خردل » « الهاء » تعود على السيئة وهى لم يسبق عنها حديث ولكن يفهم من السياق أنه كان بين الابن ووالده حديث عنها كما ذكر الشوكانى قال (روى أن ابن لقمان قال لأبيه يا أبت إن عملت الخطيئة حيث لا يرانى أحد هل يعلمها الله فقال « إنها » أى الخطيئة)(١) .

« إن تك مثقال حبة من خردل » هذه الجملة الشرطية مفسرة للضمير السابق وتك فعل الشرط مجزوم وعلامة جزمه السكون على النون المحذوفة تخفيفاً . « مثقال » قرىء بالنصب على أنه خبر « تك » واسم « تك » ضمير مستتر جوازاً تقديره هى ، يعود على السيئة . وقرىء بالرفع أيضا على أنها فاعل « تك » وتك تامة وأنث الفعل لإضافة مثقال إلى مؤنث وهو حبة أو أن المراد الحبة . وذكر الخردلة دون غيرها من الحبوب لأنها أصغر الحبوب ولا يدرك ثقلها بالحس ولا ترجح ميزانا . « فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير » « فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض » الفاء للتفريع واسم « تكن » ضمير مستتر جواز تقديره هى « فى صخرة » خبر « تكن » وما بعدها الجار والمجرور معطوف عليه وقرىء « فتكن » بكسر الكاف من وكن الطائر يكن إذا استقر فى وكنه وهى مقره ليلا « يأت بها الله » هذه الجملة جواب الشرط « إن تك » والمعنى يحضرها الله ويثيب أو يجازى عليها .

---

(١) فتح القدير ح٤ ص ٢٣٨

« إن الله لطيف خبير » جملة مستأنفة تعليلية لقوله « يأت بها الله » وهو مؤكدة بمؤكدات متعددة إن واسمية الجملة واللام وصيغة المبالغة والمعنى إن الله عليم بدقائق الأمور فيصل علمه إليها . خبير بها .

لطيفه :

هناك فرق بين أسماء الله الثلاثه العليم والخبير واللطيف . فالعليم هو الذى لا يخفى عليه شيء ولا خافية . والخبير هو العالم ببواطن الأمور . واللطيف هو العالم بخفايا الأمور ودقائقها كما فى هذه الآية وقد يكون بمعنى البر المحسن إلى خلقه بإيصال المنافع إليهم برفق .

أمر الإبن بإقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر:

« يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » .

المباحث العربية

« يابنى أقم الصلاة » أى أعطها حقها من الطمأنينة فى أركانها . وآدائها فى وقتها فهذا تكميل لنفسه « وأمر بالمعروف وانه عن المنكر » ومر الغير بالمعروف وهو ما عرف حسنه من الشرع والعقل ، وانه الناس وازجرهم عن المنكر وهو ماجه الشرع وأنف منه العقل ، وفى هذه الجملة طباق بين «وأمر» وبين « وانه » ، وقوله «بالمعروف» وبين «عن المنكر».

« واصبر على ما أصابك » الصبر هو حبس النفس عن الجزع والمراد به الصبر على الشدائد والمحن لا سيما فيما أمرت به « إن ذلك من عزم الأمور » ، هذه الجملة لا محل لها من الإعراب مستأنفة تعليلية للأمر فى قوله « أقم » وقوله « وأمر » وقوله « وانه » وقوله « واصبر » وعبر باسم الإشارة « ذلك » للاشعار ببعد منزلة هذه الأمور فى الفضل ولا يخفى ما فى هذه الجملة من التوكيد .

وفى معنى هذه الجملة يقول أبو السعود « من عزم الأمور » أى مما عزمه الله وقطعه على عباده من الأمور لمزيد مزيتها ، مصدر أطلق على المفعول وقد يجوز أن يكون بمعنى الفاعل من قوله تعالى « فإذا عزم الأمر » (١) أى جد والجملة تعليل لوجوب الامتثال بما سبق من الأمر والنهى وإيذان بأن مابعدها ليس بمثابته » (٢) .

(١) سورة محمد آية ٢١ (٢) تفسير أبى السعود حـ ٤ ص ٢٩٠

النهى عن الكبر والأمر بغض الصوت :

(ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور . واقصد فى مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير)

المباحث العربية

« ولا تصعر خدك للناس » أى لا تمله عن النظر إلى الناس تهاوناً بهم وكبراً عليهم يقول صاحب القاموس المحيط (الصعر) محركة والتصعر ميل فى الوجه أو فى أحد الشقين أوداء فى البعير يلوى عنقه منه صعر كفرح فهو أصعر وصعر خده تصعيراً وصاعره وأصعره أماله عن النظر إلى الناس تهاوناً من كبر » (١)

« خدك » الخد ماجاوز مؤخرة العين إلى منتهى الشدق أو هو ما يكتنف الأنف من جهة اليمين أو من جهة الشمال . « ولا تمش فى الأرض مرحاً » المرح هو شدة الفرح والتوسع فيه والمراد به الكبر . والمعنى : ولا تمش فى الأرض متكبراً فيكون المصدر فى موضع الحال . «إن الله لا يحب كل مختال فخور » هذا استئناف معلل للنهى السابق ومعنى مختال : متبختر فى مشيه « فخور » أى متمدح بالخصال . ولقد أخر كلمة فخور لرعاية الفواصل « واقصد فى مشيك » القصد فى المشى التوسط بين الدبيب وهو ضعف المشى والاسراع . « واغضض من صوتك » انقص من صوتك واخفضه ولا تتكلف رفعه . « من » يجوز أن تكون زائدة ويجوز أن تكون تبعيضية .

---

(١) القاموس المحيط جـ٢ صـ ٧١

« إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » هذه الجملة مستأنفة معللة للأمر بالغض أى أوحشها وأقبحها « لصوت الحمير » فصوت الحمير أوله زفير وآخره شهيق وأفرد الصوت مع أنه مضاف إلى جمع لأنه مصدر وهو يدل على الكثرة ولقد ذكر المانع من رفع الصوت وهو أنه أنكر الأصوات لصوت الحمير ولم يذكر المانع من السرعة لأن المشى والصوت كلاهما موصل إلى غاية فإن أدرك تلك الغاية فذاك وإن لم يدركها فيدركها بالنداء فرفع الصوت يؤذى السمع ويثير حفيظة الإنسان ويؤذى من فى كل اتجاه بخلاف المشى فلا يؤذى إلا صاحبه أو من كان فى طريقه .

معنى الآيات الواردة فى قصة لقمان

ساق الله قصة لقمان لأنه يعرض قضية التوحيد وما يتعلق بها ، فهو يبدأه بالنهى عن الشرك ويعلل هذا النهى بأن الشرك ظلم عظيم . ويؤكد هذه الحقيقة مرتين مرة بتقديم النهى واستئناف علته ومرة بإن واللام واسمية الجمله . وهذه الدعوة التى يدعو إليها ولده دعا رسول الله ﷺ قومه إليها . فصرفوا عنها وجادلوه مخافة ضياع سلطانهم فالقرآن يعرض قصة لقمان ووصيته ليعلن أن هذا حقيقة قديمة تواصى بها كل من آتاه الله الحكمة من الناس .

وفى ظل وصية لقمان لولده يعرض الله سبحانه وتعالى للعلاقة بين الآباء والأبناء فى أسلوب عقلى رقيق . ولقـــد تكررت التوصية بالوالدين كثيراً .

وأتت التوصية بالولد نذراً يسيراً كما فى حالة الوأد والقتل لأن الفطرة المطبوعة فى الوالدين تتكفل وحدها برعاية الولد من قبل والديه . فالوالدان مدفوعان إلى رعاية نبتهما لضمان امتداد الحياة . وأن الوالدين ليفيضان على إبنهما من كل خير ويهبان له من أجسامهما وقوتهما وعمرهما

من غير تأفف ولا شكوى بل فى غير انتباه ولا شعور بما يبذلان فالفطرة تدفعهما . أما الوليد فهو مفتقر إلى تكرير الوصية ليلتفت إلى الجيل المضحى المدبر الذاهب والذى سكب عصارة جسده وروحه فى الجيل المتجه إلى المستقبل وأحاطه بالرعاية وكلما عصف المرض بالأبناء تزلزلت أفئدة الآباء على أولادهم ، وما يملك الأبناء أن يعوضوا الآباء عن بعض مابذلوه ولو وقفوا أعمارهم عليها . وهذه الصورة الموحية « حملته أمه وهناً على وهن وفصاله فى عامين » تؤثر تأثيراً كبيرا .

وبعد . هذه الصورة المؤثرة يأمر الله بالشكر له ثم بالشكر للوالدين «أن اشكر لى ولوالديك» ويربط جزاء الشكر بالآخرة « إلى المصير »حيث يجازى الشاكرين .

ولما قدم الأمر بالشكر لله على الشكر للوالدين تتضح علاقة الآباء بالأبناء فتكون آتية فى الترتيب بعد وشيجة العقيدة فإن كان الوالدان كافرين ودعوا الابن إلى الشرك بالله فإلى هنا ويسقط واجب الطاعة وتعلو وشيجة العقيدة على كل الوشائج . بيد أنه يعايشهما ويلازمهما بالمعروف كما فعل الصالحون التائبون إلى الله .

« فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا، واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » .

وبعد هذا الاستطراد المعترض فى سياق وصية لقمان تأتى الفقرة التالية لتقرر حقيقة مافيها من ريب وهى إحاطة علم الله بكل ذرة فى الكون فلا تعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا تند عنه شاردة . ولا واردة ، إن تكن مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أوفى السموات أوفى الأرض يحضرها الله ويجازى عليها إن الله يعلم دقائق الأشياء خبير بها .

ويمضى السياق فى حكاية وعظ لقمان لولده فإذا هو يتابع معه خطوات العقيدة بعد استقرارها فى ضمير ولده بعد عودته إلى الإيمان بالله واليقين بالآخرة والثقة بعدالة الجزاء الذى لا يفلت مثقال حبة من خردل دون جزاء .

فالوصية التالية هى التوجه إلى الله بالصلاة والمحافظة عليها والتوجه إلى الناس بالدعوة إلى الله والصبر على تكاليف الدعوة ، ومتاعبها والصبر على كل معصية « يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » .

ويستطرد لقمان فى وصيته التى يحكيها القرآن فى ارشاد ابنه إلى الأدب مع الناس فنهاه عن لوى عنقه وإمالة خده تعالياً واستكباراً ونهاه عن المشى فى الأرض فى تخايل فالذى يصنع ذلك يعبر عن شعور مريض بالذات يتنفس فى مشيته الخيلاء فالله لا يحب كل مختال فخور .

ثم بين له كيفية المشى وهى مشية معتدلة قاصدة بين الدبيب والإسراع ثم أمره بخفض صوته فى معظم أحاديثه فالذى يعلو صوته فى غير موطن العلو صوته كصوت الحمير فى نهيقها .

سلوكيات تضمنتها قصة لقمان

أولا : بر الوالدين :

لقد سبق أن قال الله تعالى « أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير » فأمر بشكر الوالدين بعد شكر الله تعالى . فمن طريقهما يوجد الإبن ومن فيض خيرهما يحيا ، فلولاهما ما كانت حياته . من أجل هذا حث الله على برهما بعد النهى عن الشرك به أو بعد الأمر بعبادته قال تعالى (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب كل مختال فخور)(١) .

وقال تعالى : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا)(٢) .

ولقد سأل بعض الصحابة عن أحق الناس بالصحبة فوجههم الرسول ﷺ إلى الأم وقدمها على الأب وأكد على ذلك لكثرة تعبها عليه وشفقتها به وخدمتها له ومعاناتها فى حمله ورضاعته، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال (جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : من أحق الناس بحسن

---

(١) سورة النساء آية ٣٦

(٢) سورة الإسراء آية ٢٣ — ٢٥

صحابى قال: أمك ، قال ثم من ؟ قال : ثم أمك ، قال : ثم من ؟ قال ثم أمك ، قال ثم من ؟ قال : ثم أبوك)(١) .

ولقد صرحت الآيات بأساليب متعددة عن ملازمتهما « إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما » و « صاحبهما فى الدنيا معروفا » وذلك لأن الوالدين يكونان فى الكبر أحوج إلى الأبناء فى تلك المرحلة من أى مرحلة أخرى لذلك جعل الرسول ﷺ ملازمتهما كالجهاد فى سبيل الله عن عبد الله بن عمرو قال (جاء رجل إلى النبى ﷺ يستأذنه فى الجهاد فقال : أحى والداك قال نعم قال ففيهما فجاهد)(٢) .

ولقد ساق الإمام مسلم حديثاً تحت عنوان « تقديم الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها » (حدثنا حميد بن هلال عن أبى رافع عن أبى هريرة أنه قال : كان جريج يتعبد فى صومعة فجاءت أمه ، قال حميد فوصف لنا أبو رافع صفة أبى هريرة لصفة رسول الله ﷺ أمه حين دعته كيف وضعت كفها فوق حاجبها ثم رفعت رأسها إليه تدعوه فقالت ياجريج أنا أمك كلمنى فصادفته يصلى فقال اللهم أمى وصلاتى فاختار صلاته فرجعت ثم عادت فى الثانية فقالت ياجريج أنا أمك فكلمنى . قال اللهم أمى وصلاتى فاختار صلاته فقالت اللهم هذا جريج وهو ابنى وإنى كلمته فأبى أن يكلمنى اللهم فلا تمته حتى تريه المومسات قال ولو دعت عليه أن يفتن لفتن قال وكان راعى ضأن يأوى إلى ديره قال فخرجت امرأة من القرية فوقع عليها الراعى فحملت فولدت غلاماً فقيل لها ما هذا قالت من صاحب هذا الدير قال فجاءوا بفؤوسهم ومساحيهم فنادوه فصادفوه يصلى فلم يكلمهم قال فأخذوا يهدمون ديره فلما رأى ذلك نزل إليهم فقالوا له سل هذه فتبسم ثم مسح رأس الصبى فقال : من أبوك قال أبى راعى الضأن فلما سمعوا ذلك

(١) صحيح مسلم بشرح النووى جـ١٥ ص١٠٢

(٢) المرجع السابق ص ١٠٤

منه قالوا نبني ماهدمنا من ديرك بالذهب والفضة قال : لا ولكن أعيدوه ترابا كما كان ثم علاه)(١) .

فإن جريجا رضي الله عنه آثر صلاة النافلة على تلبية أمه وكان الأفضل أن يجيبها لأن الصلاة نافلة والاستمرار فيها تطوع لا واجب وإجابة الأم وبرها واجب وعقوقها حرام وكان بوسعه أن يخفف الصلاة ويجيبها ثم يعود لصلاته ولكنه خشي أن تدعوه إلى مغادرة صومعته والعود إلى الدنيا وحظوظها فتضعف عزيمته فيما نواه وعاهد عليه .

بر الوالدين بعد رحيلهما :

يستمر بر الوالدين حتى بعد موتهما ورحيلهما عن عالمنا فالإسلام يحث على برهما بعد الموت (عن مالك بن ربيعة الساعدي قال « بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاء رجل من بني سلمة فقال يارسول الله هل بقي من بر أبوي شيء بعد موتهما؟ قال : نعم ، الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما من بعدهما وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما وإكرام صديقهما)(٢) .

ولقد طبق ذلك عبد الله بن عمر رضي الله عنه (عن عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر أن رجلا من الأعراب لقيه بطريق مكة فسلم عليه عبدالله وحمله على حمار كان يركبه وأعطاه عمامة كانت على رأسه فقال ابن دينار فقلنا له أصلحك الله إنهم الأعراب وإنهم يرضون باليسير فقال عبد الله إن أبا هذا كان وداً لعمر بن الخطاب وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن أبر البر صلة الولد أهل ود أبيه)(٣) .

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٥ ، ١٠٦
(٢) سنن أبي داود جـ٤ ص ٣٣٦
(٣) صحيح مسلم بشرح النووي جـ٦ ص ١٠٩

جزاء العقوق :

لما كان العقوق ممجوجاً ويكرهه الله ويأباه أهل المروءة لأنه إسقاط للواجب المفروض على الأبناء تجاه الآباء قال عليه السلام فيما يرويه عبدالله ابن عمر عن النبي ﷺ قال (الكبائر : الاشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس)(١) .

ثانيا : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

لقد حث الله عليهما ونعت هذه الأمة بأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر قال تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون)(٢) .

وقال تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)(٣) .

ولعن اليهود لتقاعسهم عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قال تعالى (لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر لبئس ماكانوا يفعلون(٤) .

ولقد حث الرسول ﷺ على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

---

(١) سنن النسائى جـ ٧ ص ٨٨
(٢) سورة آل عمران آية ١٠٤
(٣) سورة آل عمران آية ١١٠
(٤) سورة المائدة آية ٧٨ ، ٧٩

وحذر من التقصير فيهما (عن حذيفة بن اليمان عن النبي ﷺ قال «والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر وليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه فتدعونه فلا يستجيب لكم)(١) .

ولقد روى عن أبى سعيد رضى الله عنه قال (سمعت رسول الله ﷺ يقول «من رأى منكراً فلينكره بيده ومن لم يستطع فبلسانه ومن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان »)(٢) وفى رواية الشيخين فليغيره .

ولقد روى عن النعمان بن بشير أنه قال: (قال رسول الله ﷺ «مثل القائم على حدود الله والمدهن(٣) فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فى البحر فأصاب بعضهم أعلاها وأصاب بعضهم أسفلها فكان الذين فى أسفلها يصعدون فيستقون الماء فيصبون على الذين فى أعلاها فقال الذين فى أعلاها لاندعكم تصعدون فتؤذوننا فقال الذين فى أسفلها فإنا ننقبها فى أسفلها فنستقى فإن أخذوا على أيديهم فمنعوهم نجوا جميعاً وإن تركوهم غرقوا جميعاً)(٤) .

وفى رواية البخارى مثل القائم على حدود الله والواقع فيها ، ودون هذه الزيادات .

ثالثاً التواضع وعدم التكبر :

مما لا مراء فيه أن الذى خلق من ماء مهين ولا يستطيع أن يبلغ الجبال طولا ويعجز أن يخرق الأرض من كان هذا حاله يكون ديدنه التواضع

(١) المرجع السابق ص ٣٩٢ ، ٣٩٣

(٢) تحفة الأحوذى جـ٦ ص ٣٩٠ ، ٣٩١

(٣) بضم الميم وسكون الدال والمراد المرائى المضيع للحقوق .

(٤) المرجع السابق ٣٩٤ ، ٣٩٥

ولا يتكبر فمن شذ عن هذا واعتراه الكبر وحلت به نفخة الكبرياء فقد ارتدى ثوباً غير ثوبه وكانت عاقبة أمره الردى والعذاب فى جهنم فإن المتكبر بحق هو الله جل جلاله وعم نواله فمن نازعه فى ذلك عذبه يقول الرسول ﷺ عن رب العزة (العز إزاره والكبرياء رداؤه فمن يناز عنى عذبته)[1] .

وهذا الحديث يتضمن حديثا نبوياً وحديثاً قدسياً .

رابعا : النهى عن التفاخر :

الرجل الذى يلعب برأسه الشيطان فيخلد إلى الماضى فتدور فى خاطره ذكريات أمجاد الأجداد أو أمجاده يظل يتشدق بها فى غدوته وروحته رجل يسلك سلوك أهل الجاهلية وهى نعرة كاذبة خافضة يأباها الله ورسوله « إن الله لا يحب كل مختال فخور » ويقول عليه السلام « إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عبية[2] الجاهلية وفخرها بالآباء مؤمن تقى وفاجر شقى أنتم بنو آدم وآدم من تراب ليدعن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان[3] التى تدفع بأنفها النتن)[4] .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى حـ١٦ صـ١٧٣

(٢) عبية : بعين مهملة مضمومة بعدها باء موحدة مشددة وبعدها ياء مفتوحة مشددة أى فخرها وتكبرها

(٣) الجعلان بكسر الجيم وسكون العين جمع جعل بضم الجيم وسكون العين : دويبة تنشأ فى القاذورات.

(٤) سنن أبى داود حـ ٤ صـ ٣٣١ ،

لفت الانتباه إلى نعم الله تعالى وبيان بعض سلوك المشركين :

(ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) .

مناسبة الآية بما قبلها .

فى الآيات السابقة حديث عن قصة لقمان وجاءت القصة لتنفيذ الشرك وترسيخ عقيدة التوحيد وفى هـــذه الآية رجوع إلى خطاب المشركين وتوبيخهم على إصرارهم على ما هم عليه من مشاهدتهم لدلائل التوحيد .

المباحث العربية

« ألم » مكونة من همزة الاستفهام و « لم » وهى حرف نفى وجزم وقلب أى تقلب صيغة المضارع إلى معنى الماضى وتستعمل « ألم » فى معنيين :

الأول : التنبيه والتذكير كما فى هذه الآية .

الثانى : التعجيب من الأمر الذى وردت فيه كما فى قوله تعالى (ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار)(١) .

« تروا » تعلموا أيها المخاطبون . وهم كفار مكة ويحتمل أن يكون من له أهلية الخطاب . وجملة « أن الله سخر لكم » الخ سدت مسد مفعولى « تروا » « سخر لكم » يقول أبو السعود والمراد بالتسخير إما جعل المسخر بحيث

(١) سورة النور آية ٤٣

ينفع المسخر له أعم من أن يكون منقاداً له يتصرف فيه كيف يشاء ويستعمله حسبما يريد كعامة ما فى الأرض من الأشياء المسخرة للإنسان المستعملة له من الجماد والحيوان أولا يكون كذلك بل يكون سبباً لحصول مراد من غير أن يكون له دخل فى استعماله كجميع ما فى السموات من الأشياء التى نيطت بها مصالح العباد معاشاً أو معاداً . وإما جعله منقاداً للأمر مذللا على أن معنى لكم لأجلكم فإن جميع ما فى السموات والأرض من الكائنات مسخرة لله تعالى مستتبعة لمنافع الخلق وما يستعمله الإنسان حسبما يشاء وإن كان مسخراً له بحسب الظاهر فهو فى الحقيقة مسخر لله تعالى)[1] .

«ما فى السموات» كل ما علا من شمس وقمر ونجم وسحاب وملائكة تدبر أمر العباد . «وما فى الأرض» من هواء وبحار وأنهار ومعادن ودواب وحصى فكل ما فى الأرض مسخرا . «وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة» «أسبغ» أوسع عليكم نعمه وأكملها وأتمها وقرىء بالصاد يقول الزمخشرى «وقرىء بالسين والصاد وهكذا كل سين اجتمع معه الغين والخاء والقاف تقول فى سلخ صلخ وفى سقر صقر وفى سالغ صالغ)[2] .

« نعمه » جمع نعمة وهى كل ما يتنعم به الإنسان «ظاهرة وباطنة» موقع ظاهرة من الإعراب حال وباطنة معطوف عليه . والمراد بهما أن الظاهرة ما تدرك بالعقل أو الحس والباطنة ما لا تدرك للناس وتخفى عليهم . ويحتمل أن تكون الظاهرة الصحة وكمال الخلق والباطنة المعرفة والعقل وقيل الظاهرة ما يرى بالأبصار من المال والجاه والجمال وفعل الطاعات والباطنة نعم الآخرة ويحتمل أن الظاهرة الإسلام وما حسن من الخلق والباطنة ما ستره الله على العبد من عمله السيء .

---

(١) تفسير أبى السعود ح ٤ ص ٢٩١

(٢) الكشاف ج٣ ص ٢٣٤

«ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير» .

«ومن الناس» أى وبعض الناس «من يجادل» من اسم موصول .

«يجادل» : الجدال : المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة وأصله من جدل الحبل إذا أحكم فتله فكأن المتجادلين يفتل كل واحد منهما الآخر .

«فى الله» أى فى شأن الله فى توحيده وصفاته على سبيل العناد والمكابرة بعد وضوح الحق له وقيام البرهان عليه . ولذا قال «بغير علم» أى بغير عقل فالجار والمجرور حال . «ولا هدى» يهتدى به إلى الطريق المستقيم . «ولا كتاب منير» أى منزل فيه نور يضىء وهو مشتمل على التقليد «وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا» لقد أتى بصيغة الجمع فى قوله «لهم» و «اتبعوا» ، وكان السياق يقتضى أن يقول «من الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . وإذا قيل له اتبع ما أنزل الله» لقد أتى بصيغة الجمع مراعاة لمعنى من «من يجادل» ، «وإذا قيل لهم» أى للمجادلين المعاندين «اتبعوا ما أنزل الله» وهو القرآن المتضمن نبذ التقليد وعبادة الأوثان «قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا» وهو عبادة الأصنام «أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير» أى يتبعونهم ولو كان الشيطان يدعو آباءهم أى فى حال دعاء الشيطان إياهم إلى عذاب السعير فجملة يدعوهم إلى عذاب السعير فى محل نصب على الحال . والشيطان : إما أن يكون من شطن بمعنى تباعد ومنه بئر شطون أى كثيرة البعد وعلى هذا تكون النون أصلية . وإما أن يكون من شاط يشيط بمعنى احترق غضباً وهو مخلوق من نار وتكون النون زائدة والكلمة تطلق على كل عات من الجن الإنس . والعذاب : الإيلام الشديد . والسعير : السعر : شدة التهاب النار . وعذاب السعير جحيم العذاب .

معنى الآيات

تذكر أيها الإنسان الضعيف الهزيل نعم الله المتمثلة فى تسخيره لك كل ما فى السموات وما فى الأرض تنتفع بما أظلك وتستريح على ما أقلك . فتنتفع بضوء الشمس ونور القمر . وتهتدى بضوء النجوم فى دياجير الليالى . وتنتفع بالمطر والهواء والطير . وتنتفع بما فى الأرض تتحكم فيها وتتصرف فى كنوزها من معادن وبترول وحجارة . وأوسع عليكم نعما تدر كونها وتحسونها ونعما لا تدر كونها «وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها» وفى ظل تلك البراهين الناطقة بوحدانية الله وقدرته وعلمه وفى جوار هذه النعم السابغة تبدو مجادلة مستغربة من بعض من يتقلبون فى هذه النعم تنبىء عن الجحود والانكار دون دليل على صحة جدالهم «وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا» فسندهم التقليد الأعمى . لا يريدون سوى أن يكونوا أسرى للانحراف والباطل . ومن ثم فهو يسخر منهم ويتهكم بهم . ويلمح من طرف خفى إلى عاقبة هذا الموقف «أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير» فآباؤهم كانوا أسرى دعوة الشيطان فاتبعوه فى عبادتهم فلعنة الله على الآباء والأبناء .

سلوك المسلم المخلص :

(ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور . ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينـــا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور . نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ) .

مناسبة الآيات بما قبلها :

لقد تحدث الله فى الآيات السابقة عن سلوك المشركين وجدالهم فى الله بغير علم . شرع فى هذه الآيات فى بيان سلوك المخلصين الذين أسلموا وجوههم لله وهم محسنون .

المباحث العربية

« ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن » يقول الراغب الأصفهانى والإسلام فى الشرع على ضربين : أحدهما دون الإيمان وهو الاعتراف باللسان وبه يحقن الدم حصل معه الاعتقاد أو لم يحصل . وإياه قصد بقوله تعالى « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا » والثانى فوق الإيمان وهو أن يكون مع الاعتراف اعتقاد بالقلب ووفاء بالفعل واستسلام لله فى جميع ماقضى وقدر)(١) .

والمعنى الثانى هو المراد من المعنيين فى هـــذه الآية . والمعنى : ومن يفوض أمره إلى الله ويقبل عليه بالكلية . وعدى الفعل « يسلم » بإلى مع أنه يتعدى باللام ليفيد الاختصاص وفى هذه الجملة مجاز مرسل علاقته الجزئية حيث أطلق الجزء وأراد الكل فى « وجهه » .

---

(١) المفردات فى غريب القرآن ص ٣٥١

« وهو محسن » جملة فى محل نصب حال من الضمير فى « وجهه » والإحسان إما أن يحسن أعماله . وإما أن يعبد الله كأنه يراه أو هما معاً « فقد استمسك بالعروة الوثقى » الفاء واقعة فى جواب الشرط من وفعل الشرط « يسلم » . ولقد اقترنت جملة الجواب بالفاء لأنها صدرت بالحرف «قد» «واستمسك» زيادة مبنى هذه الكلمة يدل على زيادة المعنى أى ازداد فى تمسكه « بالعروة الوثقى » العروة هى الفتحة فى الحبل بعد أن يعقد جزء منه فهى بمثابة المقبض من الكوز وأخت الزر من الثوب . والوثقى: أى الوثيقة وهى المحكمة . وفى هذه الجملة استعارة حيث شبه من يفوض أمره إلى الله بإنسان يرتقى ويصعد شاهق جبل فيتمسك بأوثق عرى الحبل المتدلى .

ثم حذف المشبه به وأقام شيئاً من لوازمه على سبيل الاستعارة المكنية .

« وإلى الله عاقبة الأمور » العاقبة آخر كل شىء . وتقدم الخبر فأفاد الحصر أى عاقبة الأمور إلى الله لا إلى غيره فيجازى عليها . « ومن كفر فلا يحزنك كفره » الحزن هو خشونة فى النفس بسبب غم أصابها ويضاده الفرح . واقترنت جملة جواب الشرط بالفاء لأن الجملة فعلها طلبى . وفى هذا تسلية للرسول ﷺ « إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا » تقدم الجار والمجرور أفاد القصر والمعنى رجوعهم إلينا لا إلى غيرنا « فننبئهم » الفاء يجوز أن تكون للسببية ويجوز أن تكون للترتيب والمعنى فنخبرهم بما عملوه أو بعملهم « إن الله عليم بذات الصدور » هذه الجملة لا محل لها من الإعراب مستأنفة معللة للإخبار . أى كثير العلم بما تكنه صدورهم فيحاسبهم «نمتعهم قليلا» نبقيهم ينتفعون إلى وقت انقضاء آجالهم . وقليلا صفة لموصوف محذوف والتقدير تمتيعاً قليلا . ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ» عبر بثم للتراخى بين تمتيعهم ودخولهم النار يوم القيامة . «نضطرهم»

نلجئهم ونقسرهم « إلى عذاب غليظ » أى يثقل عليهم فيضم الثقل إلى الإحراق والتضييق عليهم .

معنى الآيات

ومن يفوض الأمر إلى الله لا إلى غيره وهو يحسن العمل والسلوك ويعبد الله كأنه يراه فقد استمسك بالعروة الوثقى وهى الصلة الوثيقة بين قلب المخلص وربه ثم هى الطمأنينة إلى كل ما يأتى به قـــدر الله فى رضى وسكينة . « وإلى الله عاقبة الأمور » أى وإليه منتهى كل أمر ومرجعه . ومن أشرك بالله فشأنه أهون من أن يحزنك وأصغر من أن يهمك وهو فى قبضة الله لا يفلت فإلى الله مرجعهم فينبئهم بأعمالهم فهو عليم بكل شىء وبما تكنه صدورهم . فالله يبقيهم فى تلك الحياة حتى تنتهى . آجالهم ثم يلجئهم إلى عذاب غليظ .

مناقشة أهل الشرك فيمن خلق السموات والأرض :

(ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون . لله ما في السموات والأرض إن الله هو الغنى الحميد) .

المباحث العربية

« ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض » اللام لام القسم أى ولئن سألت مشركى مكة « من خلق السموات والأرض »؟ أى من أوجدهما من عدم وعلى غير مثال سابق « ليقولن الله » حذف من « ليقولون » نون الرفع لتوالى الأمثال وواو الضمير لالتقاء الساكنين فاعترفوا لغاية وضوح هذا الأمر فاضطروا إلى الاعتراف به « قل الحمد لله » قل الحمد لله على إلجائهم إلى هذا الاعتراف وهذا يوجب بطلان معتقدهم ، « بل أكثرهم لا يعلمون » « بل » حرف يفيد الإضراب وهو نوعان :

١ — إضراب انتقالى . ٢ — إضراب إبطالى .

ولقد سبق الحديث عنهما . ونوع الإضراب فى هذه الآية انتقالى .

والمعنى : بل أكثرهم لا يدركون وجوب التوحيد عليهم . فالعلم : إدراك حقيقة الشيء « لله ما فى السموات والأرض » لفظ الجلالة الذى دخلت عليه اللام خبر مقدم وما مبتدأ مؤخر وأفاد تقديم الخبر التخصيص والمعنى : لله ما فى السموات والأرض خلقا وملكا وعبيداً فلا يستحق الحمد والعبادة غيره « إن الله هو الغنى » هذه مستأنفة معللة ، وأفاد تعريف الطرفين أى المبتدأ والخبر الحصر أى هو الغنى وحده دون سواه والغنى هو الذى لا يفتقر لشيء « الحميد » فعيل بمعنى مفعول أى محمود بلسان الحال أو بلسان المقال .

معنى الآيات

ولئن سألت هؤلاء المشركين واستنطقتهم وأخذت بعقولهم وطوفت بها السموات والأرض فتهتف فطرتهم مجيبة : الله . قل الحمد لله على هذا الجواب فقد أبطلتم به عقائدكم . بل أكثرهم لا يدركون وجوب التوحيد عليهم لله ملك السموات والأرض خلقاً وإيجاداً ، إنه هو الذى لا يفتقر لغيره وهو المحمود بلسان الحال والمقال .

علم الله غير متناه :

(ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم . ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير) .

سبب نزول الآيات :

يقول الطبرى (حدثنا ابن حميد قال ثنا سلمة قال ثنى محمد بن إسحاق عن بعض أصحابه عن عطاء بن يسار . قال : لما نزلت بمكة « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » يعنى اليهود فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه أحبار يهود فقالوا يا محمد ألم يبلغنا أنك تقول « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » أفتعنينا أم قومك قال . كلا قد عنيت قالوا فإنك تتلو أنا قد أوتينا التوراة فيها كل شىء فقال : رسول الله ﷺ هى فى علم الله قليل . وقد آتاكم الله ما إن عملتم به انتفعتم فأنزل الله « ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إلى قوله « إن الله سميع بصير »[1] .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ٢١ صـ ٥٢

مناسبة الآيات بما قبلها :

لما ذكر سبحانه وتعالى آنفا بأن له ما فى السموات والأرض أتبعه بما يدل على أن له وراء ذلك مالا يحيط به عد ولا يحصر بحد .

المباحث العربية

« ولو أنما فى الأرض من شجرة » الواو للاستئناف وأن حرف توكيد ونصب و « ما » اسم موصول اسمها وبينه بقوله « من شجرة » من بيانية وأتى بتاء الوحدة فى شجرة دون أن يجمع فيقول شجر أو أشجار لأن المراد تفصيل الشجر واستقصاؤه شجرة شجرة حتى لا يبقى واحدة من جنسها إلا وقد بريت أقلاما ولو لم يفرد لم يفد هذا المعنى إذ الجمع يتحقق بما فوق الثلاثة أو بالمثنى على أنه أقل الجمع إلا أن تدخل على الجمع لام الاستغراق . « من شجرة » فى موضع الحال من اسم الموصول « ما » أو من ضمير الاستقرار « أقلام » خبر أن « والبحر » يجوز فيه وجهان .

١ — الرفع :

(ا) على الاستئناف .

(ب) على أنه معطوف على محل اسم أن .

٢ — النصب :

(ا) على أنه معطوف على اسم أن .

(ب) أنه منصوب على إضمار فعل يفسره مابعده « يمده من بعده سبعة أبحر » بفتح الياء وضمها ، وهذه الجملة تكون خبراً إذا كانت الجملة للاستئناف . وتكون فى محل نصب حال فى بقية أوجه الإعراب وأتى بالعدد سبعة ولم يرد به العدد بل أريد به المبالغة .

والمعنى والبحر يمده سبعة أبحر بالمداد « ما نفدت كلمات الله » .

النفاد الفناء والانتهاء ، والمراد بالكلمات (كلماته التى هى عبارة عن معلوماته .

قال أبو على الفارسى : المراد بالكلمات والله أعلم ما فى المقدور دون ما خرج منه إلى الوجود ، ووافقه القفال فقال : المعنى أن الأشجار لو كانت أقلاماً والبحار مداداً فكتب بها عجائب صنع الله الدالة على قدرته ووحدانيته لم تنفد تلك العجائب .

قال القشيرى : رد القفال معنى الكلمات إلى المقدورات ، وحمل الآية على الكلام القديم أولى ، قال النحاس قد تبين أن الكلمات هاهنا يراد بها العلم وحقائق الأشياء . لأنه جل وعلا علم قبل أن يخلق الخلق ما هو خالق فى السموات والأرض من شيء وعلم ما فيه من مثاقيل الذر وعلم الأجناس كلها ومافيها من شعرة وعضو وما فى الشجرة من ورقة وما فيها من ضروب الخلق)(١) .

« إن الله عزيز حكيم » إن الله غالب لا يعجزه شيء « حكيم » لا يند ولا يشرد عن علمه شيء ، وهذه الجملة مستأنفة .

« ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة » معنى هذه الجملة يروى الطبرى (عن قتادة : قوله « ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة » قال يقول « إنما خلق الناس كلهم وبعثهم كخلق نفس واحدة وبعثها وإنما صلح أن يقال إلا كنفس واحدة ، والمعنى إلا كخلق لأن المحذوف فعل يدل عليه قوله « ما خلقكم ولا بعثكم والعرب تفعل ذلك فى المصادر منه قول الله تعالى « تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت » والمعنى

---

(١) فتح القدير جـ ٤ ص ٢٤٣

كدوران عين الذى يغشى عليه من الموت فلم يذكر الدوران والعين لما وصفت)(١) .

« إن الله سميع بصير » هذه الجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب .

ولقد وردت صيغتا مبالغة هما سميع على وزن فعيل ومعناها كثير السماع لما يقوله منكرو البعث ، وكذلك بصير أى كثير الاطلاع على أعمالهم .

معنى الآيات

إن الله متصف بالعلم اللانهائى . فلو تحولت كل شجرة فى الأرض واجتمعت أشجار الأرض السيقان والفروع والأصول والجذور والأغصان وبريت أقلاماً وتحول البحر المحيط إلى مداد يمده من بعده أبحر الدنيا كلها وطفق الكتاب يسجلون كلمات الله المتجددة الدلالة على علمه المعبرة عن مشيئته ما انتهت كلمات الله وينفد المداد وتنتهى الأقلام بعد البرى المرة تلو المرة حتى تتآكل وتنمحى فلم تأت لكلمات الله نهاية . إنه المحدود يواجه غير المحدود ومهما كثر المحدود ومهما بلغ فسينتهى ويبقى غير المحدود ولا ينقص شيئا على الإطلاق .

وبعملية حسابية لو قسمنا المحدود على مالا نهاية تكون النتيجة صفرا فتتوارى الأشجار والبحار وتنزوى الأحياء سواه فإن الله غالب على ما سواه . حكيم ذو حكمة فى فعله ومن ثم فخلق الخلق وبعثهم يوم القيامة كنفس واحدة إنه سميع لما يقوله المنكرون للبعث بصير بأعمالهم .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١ ص٥٢

آيات على وحدانية الله وقدرته وعلمه :

(ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير ، ذلك بأن الله هو الحق وأن مايدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير . ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور)

مناسبة الآية بما قبلها :

لما ذكر الله جل جلاله وعم نواله أن خلق الخلق وبعثهم لم يكن إلا كنفس واحدة ، ذكر فى هذه الآيات التنزيلية آيات كونية على إرادته وقدرته وعلمه التى يتم بها الخلق والبعث .

المباحث العربية

« ألم تر » المراد من « ألم » التعجب من أثر قدرة الله تعالى ، والخطاب لكل من له أهلية الخطاب « أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل » الجملة الأولى سدت مسد مفعولى « تر » و « يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل » يدخل الليل فى النهار ويدخل النهار فى الليل فيزيد كل منهما بما نقص من الآخر ، وقدم الليل على النهار لأنه المقدم فى الخلق .

يقول الفخر الرازى (إيلاج الليل فى النهار يحتمل وجهين : أحدهما : أن يقال المراد إيلاج الليل فى زمان النهار أى يجعل فى الزمان الذى كان فيه النهار الليل وذلك لأن الليل إذا كان مثلا اثنتى عشرة ساعة ثم يطول يصير الليل موجوداً فى زمان كان فيه النهار .

وثانيها : أن يقال المراد إيلاج زمان الليل فى النهار أى يجعل زمان

الليل فى النهار وذلك لأن الليل إذا كان كما ذكرنا اثنى عشرة ساعة إذا قصر صار زمان الليل موجوداً فى النهار ولا يمكن غير هذا لأن إيلاج الليل فى النهار محال الوجود فما ذكرنا من الإضمار لا بد منه لكن الأول أولى لأن الليل والنهار أفعال والأفعال فى الأزمنة لأن الزمان ظرف فقولنا الليل فى زمان النهار أقرب من قولنا زمان الليل فى النهار لأن الثانى يجعل الظرف مظروفا ، إذا ثبت هذا فنقول قوله تعالى « يولج الليل فى النهار » أى يوجده فى وقت كان فيه النهار والله تعالى قدم إيجاد الليل على إيجاد النهار فى كثير من المواضع كما فى قوله تعالى « وجعلنا الليل والنهار آيتين » وقوله « وجعل الظلمات والنور » وقوله « واختلاف الليل والنهار » ومن جنسه قوله « خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا » وهذه إشارة إلى مسألة حكمية .

وهى أن الظلمة قد يظن بها أنها عدم النور والليل عدم النهار والحياة عدم الموت وليس كذلك إذ فى الأزل لم يكن نهار ولا نور ولا حياة لممكن)(١)

« وسخر الشمس والقمر » هذه الجملة معطوفة على الجملة السابقة وتسخير الشمس والقمر تذليلهما لانتفاع الخلائق بهما وعبر بالفعل المضارع فى قوله « يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل » وعبر بالفعل الماضى فى قوله « وسخر الشمس والقمر » لأن إيلاج الليل فى النهار وإيلاج النهار فى الليل متعدد ومتجدد فى كل فصل وتسخير الشمس والقمر أمر مستمر ولا تجدد فيه ولا تعدد وقدم الشمس على القمر لأنها الأصل فى نور القمر فمنها يستمد القمر ضوءه ، « كل يجرى إلى أجل مسمى » التنوين

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٢٥ ص ١٥٩

فى «كل» عوض عن مضاف محذوف والتقدير كل واحد منهما ، «إلى أجل مسمى» أى إلى وقت معلوم ، هو يوم القيامة .

لطيفه :

لقد قال الله هنا «كل يجرى إلى أجل مسمى» ، وقال فى سورة فاطر (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى) (١) .

وقال فى سورة الزمر (خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى)(٢) .

ففى آية لقمان قال «إلى أجل» ، وفى فاطر والزمر قال «لأجل» باللام، لأن ما هنا وقع بين آيتين دالتين على غاية ما ينتهى وهما «ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة» ، وقوله «اتقوا ربكم واخشوا يوما لايجزى والد عن ولده ولامولود هو جاز عن والده شيئا» ، فناسب التعبير بإلى الدالة على الانتهاء وما فى سورتى فاطر والزمر ليس كذلك فناسب التعبير باللام كل يجرى لبلوغ أجل .

«وأن الله بما تعملون خبير» هذه الجملة معطوفة على «أن الله يولج الليل فى النهار» الخ فهى حيز الرؤية ، و «ما» يجوز أن تكون مصدرية ويجوز أن تكون موصولة .

«ذلك بأن الله هو الحق» اسم الإشارة مشار به إلى الآيات الآنفة

(١) سورة فاطر آية ١٣
(٢) سورة الزمر آية ٥

وعـــبر بالبعيد للدلالة على سموها وعظمتها فى الوصول إلى خالقها واسم الإشاره مبتدأ والجملة بعده خبره والباء للسببية والحق هو الثابت الذى لا يتغير « وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير » وأن الذين يدعون من دونه من الأصنام باطل . والباطل : نقيض الحق وهو مالاثبات له عند الفحص عنه .

وفى الجملتين طباق بين الحق والباطل : يقول الطبرى (يقول تعالى ذكره هذا الذى أخبرتك يا محمد أن الله فعله من إيلاجه الليـل فى النهـار والنهار فى الليل وغـــير ذلك من عظيم قدرته إنما فعله بأنه الله حقاًدون ما يدعوه هؤلاء المشركون به وأنه لايقدر على فعل ذلك سواه ولاتصلح الألوهية إلا لمن فعل ذلك بقدرته وقوله « وأن ما يدعون من دونه الباطل » يقول تعالى ذكره وبأن الذى يعبد هؤلاء المشركون من دون الله الباطل الذى يضمحل فيبدو ويفنى « وأن الله هو العلى الكبير » . يقول تعـالى ذكره وبأن الله هو العلى يقول ذو العلو على كل شىء وكل مادونه فله متذلل منقاد الكبير الذى كل شىء دونه فـــله متصاغر)(١) .

« ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله » .

« ألم » للتنبيه والتذكير « تر أن الفلك » الخطاب كالخطاب السابق .

والفلك بضم فسكون هى السفينة يستعمل للمفرد والجمع « تجرى » فى البحر بنعمة الله » يجوز فى هذه الباء أن تكون للتعدية ، ويجوز أن

---

(١) تفسير الطبرى جـ ٢١ صـ ٥٣

تكون للسببية ، ويجوز أن تكون للحال أى للملابسة والمصاحبة . أى واقعة مع متعلقها حالا ، والمعنى تجرى فى البحر بقدرته وتهيئة أسباب الجرى ويجوز أن يكون مجازاً مرسلا حيث أطلق المسبب وهى النعمة وأراد السبب وهو القدرة .

« ليريكم من آياته » أى ليريكم بعض دلائله الدالة على وحدانيته وقدرته وعلمه وكماله ، واللام للتعليل ومن للتبعيض

« إن فى ذلك » أى أن هذه الآيات السابقة وهى إيلاج الليل فى النهار وإيلاج النهار فى الليل وتسخير الشمس والقمر وجريان الفلك بنعمته « لآيات » لعبرا « لكل صبار » أى لكل كثير الصبر فى حبس نفسه على التأمل فى تلك الآيات وحبسها على الطاعة دون المعصية وحبسها عن الجزع عند البلاء « شكور » كثير الشكر لنعم الله وخص هذه الدلائل بأنها آيات لكل صبار شكور دون سائر الخلق (لأن الصبر والشكر من أفعال ذوى الحجى والعقول فأخبر أن فى ذلك لآيات لكل ذى عقل لأن الآيات جعلها الله عبراً لذوى العقول والتمييز)(١) .

معنى الآيات

ينبه الله سبحانه وتعالى على آية دخول الليل فى النهار ودخول النهار فى الليل وتناقصهما وامتدادهما عند اختلاف الفصول وهى آية تتكرر بانتظام دقيق لا يختلف ولا يضطرب وينبه على تسخير الشمس والقمر لمنافع الخلق وكل يجرى فى فلكه إلى يوم القيامة وعندها تتوقف النواميس وأنه فعل ذلك لأنه الحق الثابت الألوهية وأن الذين يدعون

---

(١) تفسير الطبرى ج ٢١ ص ٥٣

من دونه الباطل لا ثبوت لها بالعقل والنقل ، وأن الله هو الرفيع القدر « الكبير » العظيم فى عليائه .

ثم يسوق الله تعالى بعد هاتين الآيتين آية جريان السفن فى الأبحر فإنها تجرى بقدرة الله وفق نواميس أودعها الله البحر والفلك والريح والأرض والسماء ولو اختلفت أو اختلفت ما جرت السفن فى البحار فالله هو الذى أجراها ليريكم بعض آياته الدالة على وحدانيته وقدرته إن فى تلك الآيات لعبراً لكل صبار شكور .

الفطرة بخالقها عند اضطرارها :

(وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور)

مناسبة الآية بما قبلها :

لقد تحدث الله عن آية جريان الفلك في البحر في الآية السابقة ثم تحدث في هذه الآية عن المشركين إذا ركبوا في الفلك ومخرت بهم في عباب البحر وغشيهم الموج وصار كظلال الجبال تهتف فطرتهم وتدعو الله فهو القادر على كل شيء ونسوا الأصنام والأوثان .

سبب نزول الآية :

لقد التمس بعض المفسرين لهذه الآية سببا لنزولها (وفي الخازن قيل : نزلت في عكرمة بن أبي جهل وذلك أنه هرب عام الفتح إلى البحر فجاءتهم ريح عاصف فقال عكرمة لئن أنجانا الله من هذا لأرجعن إلى محمد ﷺ ولأضعن يدي في يده فسكنت الريح فرجع عكرمة إلى مكة فأسلم وحسن إسلامه)[1] .

وإذا ثبت هذا فتضاف هذه الآية إلى الآيات المدنية التي تستثنى من هذه السورة فالسورة مكية .

المباحث العربية

« وإذا غشيهم موج كالظلل » الواو للاستئناف . وإذا شرطية جوابها « دعوا الله » ومعنى غشيهم أي أحاط بهم وأحدق « موج » الموج : حركة الماء واضطرابه . « كالظلل » جمع ظل ويجمع على ظلال . ولقد جمع المشبه

---

(١) الفتوحات الإلهية ج ٣ ص ٤١٠ .

به لأن الموج جمع فى حقيقته حيث يأتى متتابعاً وبعضه فوق بعض أو أن الموج مصدر وهو يطلق على المفرد والجمع .

« دعوا الله مخلصين له الدين » الدعاء (كالنداء إلا أن النداء قد يقال بيا أو أيا أو نحو ذلك من غير أن ينضم إليه الاسم والدعاء لا يقال إلا إذا كان معه الاسم نحو يا فلان)(١) .

« مخلصين » أى زال عنهم ما كان يشوبهم ويخالطهم من الشرك فصفوا. وهو جمع لاسم الفاعل مخلص ، وهو فى محل نصب حال وصاحبه الضمير فى دعوا ، « له الدين » له الدعاء .

«فلما نجاهم إلى البر» تدخل لما على الفعل الماضى كما فى هذه الآية فتقتضى جملتين وجدت ثانيتهما عند وجود أولاهما . فيقال : هى حرف وجود لوجود أوهى حرف وجوب لوجوب . وتدخل على المضارع فتجزمه وتنفيه وتقلبه ماضيا كلم وتفارقها فى أمور خمسة :ـ

ا ـــ أنها لا تقترن بأداة شرط فلا يقال « إن لم تقم » بخلاف « لم » قال تعالى (وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم).

ب ـــ أن منفيها مستمر النفى إلى الحال كما قال الشاعر :

فإن كنت مأكولا فكن خير آكل
وإلا فأدركنى ولما أمزق (٢)

ومنفى « لم » يحتمل الاتصال (ولم أكن بدعائك رب شقيا)(٣) .

---

(١) المفردات فى غريب القرآن ص ٢٤٤ .
(٢) البيت لشأس بن نهار المعروف بالممزق العبدى .
(٣) سورة مريم آية ٤

ج — أن منفى « لما » متوقع ثبوته بخلاف منفى « لم » قال تعالى (ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم) (١) وهذا بالنسبة للمستقبل أما بالنسبة للماضى فهما سيان فى نفى المتوقع وغيره ، مثال منفى « لم » « الميت لم يرجع إلى الحياة » .

هـ — أن منفى لما جائز الحذف لدليل عليه . قال الشاعر :

جئت قبورهم بدأ ولما فناديت القبور فلم يجبنه

والتقدير ولما أكن بدأ قبل ذلك أى سيداً . ولا تقول « وصلت بغداد ولم » تريد ولم تدخلها . ومعنى « فلما نجاهم » أى فصلهم عن الماء وأنقذهم من البحر إلى الشاطىء .

« فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور » .

لقد اختلف العلماء فى قوله « مقتصد » ومنشأ اختلافهم لورودها فى موطن آخر (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله) (٢) .

ولقد ساق صاحب الفتوحات الإلهية هذه الآراء فقال «فمنهم مقتصد» قوله — جلال الدين المحلى — «متوسط بين الكفر والإيمان» أى لانزجاره بعض الانزجار ومنهم باق على كفره لأن بعضهم كان أشد قولا وأعلى فى الافتراء من بعض قال الأصفهانى : فمنهم مقتصد أى عدل موف فى البر بما عاهد الله عليه فى البحر من التوحيد له يعنى ثبت على إيمانه . وقال الرازى المقتصد المتوسط بين السابق بالخيرات والظالم لنفسه وهو الذى تساوت سيئاته وحسناته)(٣) وذهب مجاهد إلى أنه الكافر وذهب إلى ذلك الطبرى .

---

(١) الحجرات آية ١٤ .

(٢) سورة فاطر آية ٣٢ .

(٣) الفتوحات الإلهية حـ ٣ ص ٤١٠ .

والذى أراه :

أن المقتصد فى هذه الآية هو الذى وفى بما عاهد الله عليه فآمن بدليل « فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور » أى فمنهم موف بما عاهد الله عليه ومنهم كافر وكلمة « ختار » أى غدار والغدار هو نقض العهد أما السابق بالخيرات فليس من بينهم لأن ركاب السفينة كانوا كفرة « ومايجحد بآياتنا » وما يكفر بآياتنا التنزيلية والكونية « إلا كل ختار كفور » وفى الآية مقابلة بين قوله مقتصد وبين ختار وفيها أسلوب حصر وهو النفى بما والاستثناء بإلا .

معنى الآية

وإذا ركب الكفار الفلك هاج البحر وثارت أمواجه وارتفعت فصارت كظلال الجبال فى سوادها . ولعبت الأمواج بالسفينة وصارت كالريشة الحائرة فى الخضم الهائل وعرت النفوس عن القوة الخادعة . وتجردت من قواها الموهومة . وتعرت الفطرة من أستارها الزائفة التى أسدلها عليهم تقليدهم الأعمى . استقامت وتفت كل شريك وتبرأت من كفرها . واتجهت إلى بارئها . وهتفت تدعوه لنجدتها . فلما استجاب لهم ونجاهم إلى الشاطىء كانوا فريقين . فريق موف بعهده أثناء دعائه فآمن . وفريق جحد عهده وظل على شركه . ومايمنكر آيات الله التنزيلية والكونية إلا كل غدار جحود منكر .

التحذير من يوم القيامة ودواهيه :

« يا أيها النـــاس اتقوا ربكم واخشو يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً إن وعدالله حق فلا تغرنكم الحياةالدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور » .

مناسبة الآية بما قبلها

لقد تحدث الله آنفا عن هول البحر الذى لا منجى منه إلا الله ، وبعد هـذا تحدث فى هذه الآية عن هول يوم القيامة التى تقطع فيـه أواصر القربى من رحم ونسب ويشغل الوالد عن الولد بنفسه ويشغل الإبن عن والديه وتقف كل نفس فيـه وحدها مجردة من كل عون موحشة من كل قربى .

المباحث العربية

« يا أيها الناس » « يا » حرف نداء . و «أى» منادى و « ها » للتنبيه « الناس » بدل من أى . «اتقوا ربكم» التقوى : هى جعل النفس فى وقاية مما تخاف منه ويؤذيها ويضرها وهو فى عرف الشرع : حفظ النفس عما يؤثم وذلك بترك المحظورات والنواهى .

فهى الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والاستعداد ليوم الرحيل .

« واخشو يوماً » الخشيـة هى الخوف الذى يكون معه تعظيم وأكثر ما يكون ذلك عن عـلم . والمراد باليوم هو يوم القيامة ونكر للتفخيم ، والتعظيم .

« لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا » .

الجملتان صفتان ليوم والجملة الثانية معطوفة على الجملة الأولى ، والذى سوغ الابتداء بالنكرة وقوعها فى سياق النفى . ويجوز أن يكون مولود معطوفاً على والد والجملة بعده صفة « شيئا » تنازعه العاملان : يجزى ، وجاز فأعمل الثانى وحذف من الأول ونكر ليعم كل أمر .

والمعنى : لا يغنى والد عن ولده ولا يغنى مولود عن والده شيئا، ولقد ذكر سبحانه اثنين من القرابات وهما الوالد والولد وهما الغاية فى الحنو من غيرهما ، فما عداهما من الوشائج والأواصر لا يغنى من باب أولى .

« إن وعد الله حق » إن ما وعد الله به من وقوع البعث سيتحقق ، ولا يخلف الله وعده .

« فلا تغرنكم الحياة الدنيا » فلا تلصقنكم الحياة الدنيا بها لزخارفها . والدنيا صفة للحياة على وزن فعلى مقصورة غير منونة وتجمع على دنى والنسبة إليها دنيوى وهى مشتقة من الدنو وسميت بذلك لدنوها من الزوال أو من الدناءة لحقارتها وخستها .

« ولا يغرنكم بالله الغرور » الغرور هو الشيطان .

وقرأ الجمهور بفتح الغين وقرأ سماك بن حرب وأبو حيوه وابن السميفع بضم الغين مصدر غــــر يغر غرورا وعلى هذا يكون مصدراً واقعاً وصفاً للشيطان لا على سبيل المبالغة .

معنى الآية

يا أيها الناس التزموا بتقوى الله واخشوا يوم القيامة فهو يوم تنقطع فيه أواصر القربى والدم ووشائج الرحم والنسب بين الوالد وولده وبين

المولود ووالده فلا يجزى أحد عن أحد لأن هــذا الهول لا نظير له فى مألوف الناس وهذا اليوم وعد الله به ووعده لا يتخلف .

فلا تغرنكم الحياة الدنيــا بمتاعها ولهوها فهى دار ممر لا دار مقـر .

« ولا يغرنكم بالله الغرور » أى لا يغرنكم الشيطان بالقوة وبالعمر الطويل وبالرجاء فإنه عدو لكم .

آية الغيب :

(إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وماتدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير) .

مناسبة الآية لما قبلها :

تحدث الله فى الآية السابقة عن مشهد من مشاهد يوم القيامة وأن ما وعد الله به سيقع وفى هذه الآية بين أن علم هذا اليوم من الأمور الغيبية التى لم يطلع عليها أحد من الخلق فيقاته فى مكنون علم الله .

سبب نزول هذه الآية :

(نزلت لما قال الحرث بن عمرو للنبي ﷺ متى الساعة وأنا قد ألقيت الحب فى الأرض فتى السماء تمطر . وامرأتى حامل فهل حملها ذكر أم أنثى وأى شيء أعمله غداً ولقد علمت بأى أرض ولدت فبأى أرض أموت اه خازن بتصرف)(١) .

المباحث العربيـــة

« إن الله عنده علم الساعة » هذه الجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب ومعناها إن الله عنده علم وقت قيام الساعة أى فى أى وقت تقوم « وينزل الغيث » أى وهو الذى ينزل الغيث ويعلم المقدار الذى ينزل فى أى أرض

(١) الفتوحات الإلهية جـ٣ ص ٤١١

ولا يقدح فى هذا ما يتوقعه خبراء الأرصاد لأنهم يبنون توقعاتهم على نواميس الله الموجودة . ومن جهة أخرى فهم لا يعرفون مقدار المطر الذى ينزل على أى بقعة من الأرض والغيث هو المطر الذى ينزل بعد اضطرار الخلق إليه ويجمع على غيوث وأغيات « ويعلم ما فى الأرحام » أى ويعلم الذى فى الأرحام هل هو شقى أم سعيد وما عمره وما عمله . ولا يقدح فى هذا اكتشاف نوع الطفل من ذكر وأنثى بالأشعة التليفزيونية « وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً » « ما » الثانية استفهامية وقد علقت تدرى عن العمل لأنها تنصب مفعولين لتضمنها معنى علم . أو أنها لم تعلق تدرى عن العمل والجملة الاستفهامية سادة مسد مفعوليها أو أن تدرى بمعنى العرفان فتنصب مفعولا واحداً و « ما » مفعولها والجملة بعدها صلتها « وما تدرى نفس بأى أرض تموت » الجار والمجرور متعلق بالفعل بعده « تموت » والباء ظرفية والتقدير فى أى أرض .

لطيفتان :

الأولى : لم قال بأى أرض ولم يقل بأى وقت تموت مع أن كليهما غير معلوم لغيره بل نفى العلم بالزمان أولى لأن من الناس من يدعى علمه بخلاف المكان .

والجواب على ذلك : قال بأى أرض لأن للمكان تأثيراً فى جلب المصلحة والسقم فالإنسان ينتقل إلى الأمكنة لمصلحته وليس ذلك فى الزمان .

الثانية : أضاف العلم إلى نفسه فى الأمور الثلاثة من الأمور الغيبية الخمسة ونفى العلم عن العباد فى الأخيرتين مع أن الخمسة سواء فى اختصاص الله تعالى بعلمها وانتفاء علم العباد بها لأن الثلاثة الأولى أمرها أعظم وأفخم فخصت بالإضافة إليه سبحانه والأخيرتين من صفات العباد فخصتا

بالإضافة إليهم مع أنه إذا انتفى عنهم علمها كان انتفاء علم ماعداها من الخمسة أولى(١) .

« إن الله عليم خبير » لقد ذكر تعالى أن الله عنده علم الساعة وذكر فى هذه الجملة أن علمه غير مختص بها فقط بل هو عليم مطلقاً .

معـــنى الآية

إن الله يعلم ميقات الساعة ليبقى الناس على حذر دائم منها . وينزل الغيث وفق حكمته بالقدر الذى يريده . ويعلم ما فى الأرحام هل هذا شقى أم سعيد مؤمن أم كافر ومقدار هذا الجنين وملامحه وعدد ذرات جسده . وعمره على الأرض « وماتدرى نفس ماذا تكسب » فى غدها من خير وشر ونفع وضر . وطاعة ومعصية وماتدرى نفس فى أى أرض تلقى حتفها وينتهى أجلها . إن الله عليم بكل شىء خبير ببواطن كل شىء .

(١) انظر الفتوحات الإلهية حـ ٣ ص ٤١١ .

سورة السجدة

هذه السورة مكية . وقيل مكية إلا خمس آيات : ـ

وهى « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون . فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » إلى آخر الآيات الخمس وهو « الذى كنتم به تكذبون » .

وقال ابن عباس ومقاتل والكلبى هى مكية إلا ثلاث آيات نزلت بالمدينة وهى « أفمن كان مؤمنا » إلى قوله « تكذبون » .

مناسبة السورة بسورة لقمان

قال صاحب البحر المحيط (ولما ذكر الله تعالى فيما قبلها دلائل التوحيد من بدء الخلق وهو الأصل الأول ثم ذكر المعاد والحشر وهو الأصل الثانى وختم به السورة ذكر فى بدء هذه السورة الأصل الثالث وهو تبيين الرسالة) (٢) .

أهـــدافها

أولا . تنبيه البشر إلى أن القرآن منزل من رب العالمين . ولا شك فى ذلك .

ثانياً : إثبات رسالة الرسول ﷺ وصدقه فى التبليغ عن رب العالمين وأن القرآن ليس من عنده بل من عند الله تعالى ليخوف به العرب الذين لم يأتهم نبى قبله لكى يهتدوا .

ثالثاً : عرض قضية التوحيد وبيان بعض صفات الخالق سبحانه وتعالى من خلال صفحة من الصفحات الكونية وهى خلق السموات والأرض

---

(١) البحر المحيط جـ ٧ ص ١٩٦ .

وما بينهما والهيمنة عليهما وتدبير أمرهما وعروج الأمر إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة من حساب البشر . فالخالق والمدبر عالم بما خفى وظهر وهو قاهر غالب رحيم . أحسن خلق كل شىء أبدعه .

رابعاً : بيان منشأ الإنسان وأنه خلق من طين فى أحد أطواره . ثم جعل ذريته بعد ذلك من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون » .

خامساً : عرض قضية البعث وشك قريش فى وقوعه بعد موتهم وتفرق أشلائهم واختلاط ذراتهم فى التراب « وقالوا أئذا ضللنا فى الأرض أئنا لفى خلق جديد . بل هم بلقاء ربهم كافرون » .

سادساً : عرض بعض مشاهد القيامة : وهى وقوف المجرمين بين يدى ربهم وعند معاينتهم الموقف أصبحوا موقنين فاعترفوا بيقينهم ولكن هذا الاعتراف لا يجدى شيئاً ولا يبرىء ساحتهم من الشرك فقد فات الآوان

سابعاً : عرض سلوك المؤمنين بعد أن تمكن الإيمان من أفئدتهم فإذا ذكروا بآيات ربهم سقطوا دون تردد سجداً منزهين الله عما لا يليق بجلاله وجماله وهم لا يستكبرون عن عبادته ولا تنزيهه ولا يتوانون فى طاعة ربهم . ولا يثبطهم الرقاد بل تتجافى جنوبهم عن المضاجع ليذوقوا حلاوة القرب ولذة الوصال . وأثناء وصالهم يعيشون فى وقت واحد حالين . حال الخوف من لقاء الله وحال الطمع فى رحمته وهذا ديدنهم بالليل ولا ينقطع إنفاقهم على من هم أهل للإنفاق عليهم . فهذه صورة شفيفة ترف حولها القلوب ثم يعرض الله فى أعقاب ذكرها ما أعده الله لهذه النفوس الوجلة الطامعة « من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » .

ثامناً : عرض أسوة سابقة للمسلمين من الذين ساروا على درب توراة موسى فلقد صبروا وكانوا بآيات الله موقنين مصدقين . والله يفصل بين

المشركين والمؤمنين يوم القيامة فيما كانوا فيه يتخاصمون .

تاسعاً : لفت الانتباه إلى مصارع الغابرين من القرون السابقة وفيهم عبرة فلقد كذبوا وغرسوا الكفر والشر فجنوا الموت والعذاب .

عاشراً : بيان دليل من أدلة البعث وهو قياس الإعادة على إخراج الزرع من الأرض الجرز ومع هذا يتساءل القرشيون عن هذا اليوم فيقولون « متى هذا الفتح إن كنتم صادقين . قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولاهم ينظرون » ثم قال الله لرسوله « فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون » .

القرآن منزل من عند الله :

قال تعالى (ألم . تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين . أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون)

المباحث العربيه

لقد سبق الحديث عن افتتاح هذه السورة واضرابها . « تنزيل » محله الرفع على أنه مبتدأ وخبره جملة « لا ريب فيه » و « ألم » اسم صوت ويجوز أن يكون خبراً لقوله « ألم » على أنها اسم للسورة ، وإن لم تجعل اسماً للسورة فتكون كلمة تنزيل خبراً لمبتدأ محذوف والتقدير هو تنزيل أو أنها خبر بعد خبر أي ألم خبر لمبتدأ محذوف وتنزيل خبر ثان . «لا ريب فيه» هذه الجملة المنفية بلا النافية للجنس يجوز أن تكون حالا « من رب العالمين » يجوز أن تكون حالا ثانية . ويجوز أن تكون كل هذه الجمل أخباراً . ويجوز أن تكون جملة « لا ريب فيه » حالا و « من رب العالمين » خبراً ومعنى « تنزيل » أى أنه نزل نجما نجما . و « لا ريب فيه » أى لا شك فيه « من رب العالمين » رب يربه : أى ينميه وينشئه حالا فحالا إلى حد التمام . فالرب مصدر مستعار لفاعل التربية ومن للابتداء ، «العالمين» يقول الراغب الأصفهانى (العالم : اسم للفلك وما يحويه من الجواهر والأعراض وهو فى الأصل اسم لما يعلم به كالطابع والخاتم لما يطبع به ويختم به وجعل بناءه على هذه الصيغة لكونه كالآلة والعالم آلة فى الدلالة على صانعه وأما جمعه جمع السلامة فلكون الناس فى جملهم والإنسان إذا شارك غيره فى اللفظ غلب حكمه)(١)

---

(١) المفردات فى غريب القرآن ص ٥١٥ مختصرا

« أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك » « أم » مقدرة ببل التى للإضراب وهمزة الاستفهام الانكارى ، وهى منقطعة وليست متصلة ، « افتراه » أى اختلقه وأتى به كذبا . والضمير راجع إلى الكتاب وهو القرآن « بل هو الحق من ربك » « بل » إضراب إبطالى لنفس الافتراء ، والحق هو الثابت الذى لا يتغير ، بل أوحى الله إليه وهو ثابت وليس باطلا . وفى تعريف الطرفين أى المبتدأ والخبر ما يفيد الحصر بأنه هو الحق وما عداه ليس بحق . و « من ربك » فى موضع الحال أى كائناً من عند الله .

« لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك » « لتنذر قوما » اللام للتعليل ومعنى الإنذار التخويف وقوما مفعول به أولى والمفعول الثانى يجوز أن يكون العقاب والتقدير لتنذر قوما العقاب ويجوز أن يكون جار ومجرورا « به » والمراد بالقوم هم العرب والتنكير هنا للتحقير والتقليل فلقد كانوا قبائل متفرقة فى أنحاء الجزيرة العربية فأنزل الله عليهم التنزيل ليرفعهم ويجعلهم أمة لها شأنها « ما أتاهم من نذير » «ما» نافية و «من» حرف جر زائد فهو مزيد للتوكيد . و «نذير» فاعل «أتاهم» فهو مرفوع بضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد . والمعنى ما أتاهم رسول من قبلك . جوز أبو حيان أن تكون « ما » موصولة . ويكون المعنى لتنذر قوما العقاب الذى أتاهم لمن نذير من قبلك والمعنى بعيد وهو مخالف لأن الأمة التى لم يرسل الله إليها رسولا هم العرب « من قبلك » أى من قبل مبعثك . « لعلهم يهتدون » كى يهتدوا أو رجاء أن يهتدوا لعل لها معنيان :

١ — أن تكون بمعنى كى فتكون للتعليل .

٢ — أن يكون الترجى من جهة الرسول ﷺ كما فى قوله تعالى (لعله يتذكر أو يخشى) فالترجى من موسى وهارون .

ولقد ذهب الزمخشرى إلى أن لفظ الترجى مستعار للإرادة بمعنى أنه عبر عن الإرادة بلفظ الترجى . ولقد علق أبوحيان على اتجاه الزمخشرى بقوله (وهذه نزعة اعتزالية لأنه عندهم أن يريد هداية العبد فلا يقع مايريد ويقع مايريد العبد ، تعالى الله عن ذلك)(١) .

معنى الآيات

« ألم » هذه أحرف من جنس ما تصوغون كلامكم خوطبتم بها من هذا الكتاب فأنتم تعرفون ما تملكون من حروفكم أن تصوغوا منها ومن نظائرها من كلام وتدركون البون الشاسع بين ما تملكون أن تصوغوه منها وبين القرآن وهو فارق يدركه كل خبير بالقول وكل من يمارس التعبير باللفظ عن المعانى والأفكار وهذا الكتاب منزل من عند رب العالمين ولا مرية فى ذلك . بل تقولون اختلقه كذباً على مولاه بل هو الحق من ربك . لتخوف به العرب الذين لم يأتهم نذير من قبلك كى يهتدوا ويسيروا فى الطريق المستقيم .

(١) البحر المحيط حـ٧ صـ١٩٨

آيات على قدرة الله وهيمنته على الكون وتدبيره لشئونه :

(الله الذى خلق السموات والأرض ومابينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقـــداره ألف سنه مما تعدون . ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم . الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون) .

مناسبة الآيات بما قبلها :

قال أبو حيان (لما بين الله تعالى أمر الرسالة(١) ذكر ما على الرسول من الدعاء إلى التوحيد وإقامة الدليل بذكر مبدأ العالم)(٢) .

وأقول :

أتى الله بهذه الآيات عقب الحديث عن الكتاب وهى متضمنة للحديث عن كمال قدرة الله تعالى وعظيم صنعه وأنه وحده القادر على إنزال هذا الكتاب دون سواه .

المباحث العربيه

« الله الذى خلق السموات والأرض ومابينهما » لفظ الجلالة مبتدأ واسم الموصول خبره . والخلق هو الايجاد على غير مثال سابق .

---

(١) أى الحديث عن التنزيل

(٢) البحر المحيط حـ٧ صـ١٩٨

والسموات كل ما علا فيشمل السموات السبع ويشمل كل ما علا من الكواكب والنجوم . ويشمل ما بين هذه الكواكب من غازات ، وما بين السموات والأرض .

« فى ستة أيام ثم استوى على العرش » المراد بالأيام هى أوقات ستة غير الأيام التى نعلمها وليس أيام الدنيا لأن يوم الدنيا يحسب من طلوع الشمس إلى غروبها ولم يكن هذا التوقيت عند بدء الخلق . واليوم يطلق على الوقت من الأوقات الستة فهى أيام ستة بمعنى الأوقات (وقال ابن عباس إن اليوم من الأيام الستة التى خلق فيها الله . مقداره ألف سنة من سنى الدنيا . وقال الضحاك فى ستة آلاف سنة أى فى مدة ستة أيام من أيام الآخرة وليست ثم للترتيب وإنما هى بمعنى الواو)(١) .

وذهب بعض العلماء إلى أن هذه الأيام الستة هى من أيام الدنيا وهذا اتجاه الحسن البصرى . وذهب إلى هذا ابن كثير فى تفسيره للآية الرابعة والخمسين من سورة الأعراف فيقول (يخبر الله تعالى أنه خالق العالم سمواته وأرضه وما بين ذلك فى ستة أيام كما أخبر بذلك فى غير ما آية من القرآن . والستة أيام هى الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة وفيه اجتمع الخلق كله وفيه خلق آدم عليه السلام)(٢) .

والذى أراه :

أن هذه الأوقات الستة كل وقت فيها يسمى باليوم وليس مقداره كمقدار يوم الدنيا وأما تسمية أيام الأسبوع فهى من تسمية الخلق .

---

(١) الفتوحات الإلهية جـ٣ ص٤١٣

(٢) تفسير القرآن العظيم جـ٢ ص ٢٢٠

«ثم استوى على العرش» لقد ذهب السلف إلى اتجاه فى تفسير هذه الآية وأضرابها ، وهو إجراؤها وامرارها كما أتت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل وذهب إلى هذا الإمام مالك والأوزاعى والثورى والليث بن سعد والشافعى وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه ، وظاهر الآية منفى عن الله تعالى فالله مخالف للحوادث «ليس كمثله شىء وهو السميع البصير»(١) .

فمن شبه الله بخلقه كفر وما قاله الإمام مالك حين سئل عن هذا فقال: الاستواء معلوم والتكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعه ولقد ذهب الخلف إلى تأويل هذه الآية وأضرابها فأولوا النص على خلاف بينهم فقال قوم استوى بمعنى استولى وقال بعضهم قصد يقول أبو السعود (« ثم استوى على العرش» أى استوى أمره واستولى وعن أصحابنـــا أن الاستواء على العرش صفة الله تعالى بلا كيف والمعنى أنه تعالى استوى على العرش الذى عناه منزها عن الاستقرار والتمكن ، والعرش الجسم المحيط بسائر الأجسام سمى به لارتفاعه أو للتشبيه بسرير الملك فإن الأمور والتدابير تنزل منه)(٢) .

والعرش جسم نورانى يحيط بالعالم كله.

مبدأ السلامة :

يرى الإنسان نفسه بين فريقين وكلاهما مصيب فالسلف ينزهون الله عما لا يليق بجلاله وعظمته والخلف ينزهونه كذلك ويصرفون النص عن ظاهره إلى معنى يليق بجلال الله ولقد قال الشيخ سليمان بن عمر العجيلى الشهير بالجمل (اختلف العلماء فى هــذه الآية ونظائرها على قولين :

---

(١) سورة الشورى آية ١١
(٢) تفسير أبى السعود جـ٢ صـ٢٥٥

أحدهما : ترك التعرض إلى بيان المراد . الثانى : التعرض إليه والأول أسلم كما جرى عليه الشيخ المصنف(١) لأن صفة الاستواء مما لا يجب العلم بهــا فمن يتعرض إليه لم يترك واجباً ومن تعرض إليه فقد يخطىء فيعتقد خلاف ماهو عليه فالأول غاية ما يلزمه أنه لا يعلم والثانى يكاد يقع فى أن يكون جاهلا وعدم العلم كالسكوت والجهل المركب كالكذب ولا شك أن السكوت خير من الكذب)(٢) .

« مالكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون » الخطاب لكفار مكة ويجوز أن تكون «ما» بمعنى ليس فيكون «ولى» أسمها مرفوع وعلامة رفعه ضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد وهو «من»، وهذا الحرف مزيد للتوكيد والمعنى لا ناصر من دونه ولا شفيع يشفع لكم عنــده حتى يدفع عنكم عذابه «أفلا تتذكرون » ، أفلا تتعظون.

وفى قوله : « ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولى ولا شفيع» التفات من الغيبة إلى الخطاب .

«يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون » ،

(١) المصنف هو جلال الدين المحلى.

(٢) الفتوحات الإلهية جـ٣ص٤١٣

مناسبة الآية بما قبلها :

لما بين الله آنفا خلق السموات والأرض بين فى هذه الآية تدبيره لأمرهما .

« يدبر الأمر » التدبير هو (النظر فى عاقبة الأمر كالتدبر)(١).

والأمر : الشأن ، والمعنى يدبر شئون الخلق وأحوالهم ابتداء من السماء وانتهاء بتخوم الأرض وغيرها ، ولقد اختلف العلماء فى معنى «يدبر الأمر» (ينزل أمره من أعلا السموات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة كما قال سبحانه «الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن» ومسافة ما بين سماء الدنيا والأرض التى تحتها نزولا وطلوعا ألف سنة من أيام الدنيا .

وقيل المراد بالأمر المأمور به من الأعمال أى ينزله مدبرا من السماء إلى الأرض ، وقيل يدبر أمر الدنيا بأسباب سماوية من الملائكة وغير نازلة أحكامها وآثارها إلى الأرض، وقيل ينزل الوحى مع جبريل ، وقيل العرش موضع التدبير كما أن مادة العرش موضع التفصيل كما فى قوله « ثم استوى على العرش يدبر الأمر يفصل الآيات» وما دون السموات موضع التصرف قال الله تعالى: «ولقد صرفناه بينهم ليذكروا »)(٢).

«ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون » العروج هو ذهاب مع صعود والمعنى يقول مجاهد (فى يوم كان مقداره ألف سنة يعنى

---

(١) القاموس المحيط حـ٢ ص٢٨

(٢) فتح القدير حـ ٤ ص٢٤٨

بذلك نزول الأمر من السماء إلى الأرض ومن الأرض إلى السماء فى يوم واحدوذلك مقداره ألف سنة لأن مابين السماء إلى الأرض مسيرة خمسمائة عام، وعن الضحاك «ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون» قال: تعرج الملائكة إلى السماء ثم تنزل فى يوم من أيامكم هذه وهو مسيرة ألف سنة)(١) .

وأقول :

إن معنى الآية تنزل الملائكة بتدبير شئون الخلق جميعاً من قضاء وقدر من السماء إلى تخوم الأرض ثم ترجع صعوداً إلى الله بثمرة التدبير وهى أعمال الخلق ومدة النزول والصعود هى بزمن الأرض مقدار ألف سنة مما يعد أهلها ، وفى كلتى السماء والأرض طباق .

ولقد ذهب بعض العلماء إلى أن المراد باليوم فى هذه الآية هو يوم القيامة وهذا بعيد لأن هـذه الآية تبين المسافة التى تقطعها الملائكة هبوطاً وصعوداً من السماء إلى الأرض بأنها ألف سنة .

« ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم » اسم الإشارة مشار به إلى الخالق المدبر أمر الخلائق ، وعالم الغيب أى ما غاب عن الخلق وخفى و«الشهادة» ماحضر والعزيز المنيع الغالب، والرحيم كثير الرحمة بأهل طاعته وفى العزيز والرحيم صيغة مبالغة، هى فعيل ، (وفى السمين العامة على رفع عالم والعزيز والرحيم على أن يكون ذلك مبتدأ وعالم خبره والعزيز والرحيم خبران أو نعتان أو العزيز الرحيم خبر مبتدأ مضمر وقرأ زيد بن على بجر الثلاثة وتخريجها على أشكالها أن يكون ذلك إشارة إلى الأمر المدبر ويكون فاعلا ليعرج والأوصاف الثلاثة بدل من الضمير فى إليه كأنه قيل ثم يعرج

(١) تفسير الطبرى ج ٢١ ص ٥٨ بتصريف .

الأمر المدبر إليه عالم الغيب أي إلى عالم الغيب وأبو زيد برفع عالم وخفض العزيز الرحيم على أن يكون ذلك عالم مبتدأ وخبر والعزيز الرحيم بدلان من الهاء في إليه أيضا وتكون الجملة بينهما اعتراضاً)(١).

«الذي أحسن كل شيء خلقه» اسم الموصول خبر بعد الأخبار السابقة أو هو خبر العزيز كما سبق «خلقه» قرأ الجمهور بفتح اللام على أنه فعل ماضي فتكون الجملة فعلية من الفعل «خلق» والضمير العائد على الذي فاعله والهاء مفعول به وهو يعود على شيء والجملة في محل جر صفة لشيء ويجوز أن تكون نعتا لكل فتكون الجملة في محل نصب ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بإسكانها فعلى هذه القراءة يكون المصدر «خلقه» منصوباً في نصبه أوجه :

١ — أن يكون بدلا من كل شيء أي بدل اشتمال والضمير المضاف إليه يعود إلى كل شيء .

٢ — أنه بدل كل من كل والضمير راجع إلى الله سبحانه وتعالى، ومعنى «أحسن» حسن ، لأن كل شيء في كون الله مخلوق على ما تقتضيه الحكمة فكل المخلوقات حسنة.

٣ — أن يكون كل مفعولا أولا وخلقه مفعولا ثانياً.

٤ — أنه منصوب على المصدر المؤكد لمضمون الجملة : والمعنى خلقه خلقاً .

٥ — أنه منصوب على نزع الخافض والمعنى أحسن كل شيء في خلقه

---

(١) الفتوحات الإلهية حـ ٢ ص ٤١٤

فلم يخلق الله الإنسان كالحيوان بل أحسن خلقه ، وأتقن وأحكم خلق المخلوقات الأخرى .

« وبدأ خلق الإنسان من طين » المراد بالإنسان آدم فتكون أل للعهد ومن بيانية « وجعل نسله من سلالة من ماء مهين » المراد بالنسل الذرية والسلالة ما أنسل من الشيء أيضا وسميت الذرية بهذا لأنها تسل من الأصل وتنفصل عنه . والمراد بالماء المهين : المنى والتنكير للتحقير والتقليل والمهين الحقير الضعيف « ثم سواه » أى قوم أعضاءه فى صورة بديعة قال تعالى « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » (١) والضمير يعود على الإنسان .

« ونفخ فيه من روحه » المراد بالروح هو جبريل والإضافة للتشريف قال تعالى (وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح)(٢).

والمعنى : نفخ فيه فصار حياً وقال تعالى (تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر) (٣) .

« وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة » أى وخلق لكم السمع والأبصار والقلوب تكميلا لنعمته عليكم وتتميما لتسويته لخلقكم حتى تجتمع لكم النعم ، وأفرد السمع لأنه مصدر فهو يشمل المفرد والجمع . وخص السمع بذكره مصدراً دون البصر والفؤاد فذكرهما بالاسم وجمعهما ، لأن الإنسان لا اختيار له فى هـذه الحاسة بخلاف البصر والفؤاد ولأن المحسوس بالسمع شيء واحد هو الصوت أما البصر والفؤاد فالمحسوس بهما متعدد ومختلف وفى الجملة أسلوب بلاغي وهو التفات من الغيبة إلى الخطاب

---

(١) سورة التين آية ٤ (٢) سورة الشعراء آية ١٩٢ ، ١٩٣
(٣) سور القدر آية ٤

« قليلا ما تشكرون » وانتصب قليلا إما على أنه صفة لمصدر محذوف والتقدير شكراً قليلا الذى تشكرونه أو أنه صفة لزمان محذوف والتقدير زمانا قليلا الذى تشكرونه ويحتمل أن تكون ما مصدرية .

معنى الآيات

الله الذى أوجد هذا العالم علويه وسفليه وما بينهما فى ستة أوقات ثم استوى على العرش فهو المهيمن على كل شىء مالكم يا كفار مكة من غيره ناصر ولا شفيع يدرآن عنكم عذابه ومقته أتستمرون على كفركم فلا تتذكرون . وهو المتصرف فى كونه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يرتفع كل تدبير وكل تقدير بمآله ونتائجه وعواقبه إليه فى علاه فى يوم لو قدر بزمن الأرض كان مقداره ألف سنة من الذى تعدونه . ذلك الخالق للعالمين العلوى والسفلى مطلع على ما خفى عنكم وما ظهر وهو القوى القادر الغالب على ما يريد وهو الرحيم فى إرادته وتدبيره لخلقه .

« الذى أحسن كل شىء خلقه » وهذا لا يخفى عن الأعين ولا يغيب عن العقول وهو متمثل فى أشكال الأشياء ومقدارها ووظائفها وحركاتها وطبيعتها منفردة وفى تناسقها مجتمعة وفى أحوالها وأنشطتها . فكل شىء خلقه الله يتجلى فيه الإحسان والإتقان فلا تجاوز ولا قصور ولا إفراط ولا تفريط فكل شىء لا يخرج عن حـــد التناسق الجميل ولا يتقدم عن موعده ولا يتأخر عن زمنه ولا يتجاوز مداه ولا يقصر وكل شىء مخلوق ليؤدى دوره المقسوم له فى رواية الوجود . ولقد دعا حسن الكون ودقته — موسى عليه السلام — أن يرد على فرعون من هذا المنطلق المعجز حين سأله فرعون قائلا (فمن ربكما ياموسى ، قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) (١) .

---

(١) سورة طه آية ٤٩، ٥٠

« وبدأ خلق الإنسان من طين » تحدثت هذه الآية عن طور من أطوار خلق آدم وهو طور خلقه من الطين وهو التراب الممزوج بالماء . وليس بين خلقه من تراب وخلقه من طين وخلقه من حمأ مسنون وخلقه من صلصال تناقض فكلها أطوار مر بها — آدم عليه السلام —

« ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين » ثم جعل ذريته من سلالة من ماء حقير ضعيف « ثم سواه ونفخ فيه من روحه » وخلق لكم السمع والأبصار والقلوب شكراً قليلا على هذه النعم معشر البشر .

إنكار المشركين للبعث والرد عليهم :

(وقالوا أئذا ضللنا فى الأرض أئنا لفى خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون . قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون) .

مناسبة الآيتين بما قبلهما :

لقد تحدث الله فى الآيات السابقة عن بعض معالم قدرته وهو خلق آدم من طين وبقدرته جعل ذريته من سلالة من ماء مهين ، وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة فهذه معالم قدرة الله ثم ساق منكرى البعث ثم تحدث عن موتهم وبعثهم وهذا يتعلق بقدرة الله التى ظهرت معالمها فى الآيات السابقة .

وأعرض الله تبارك وتعالى عن ذكر بعض أدلة البعث كما فى مواطن أخرى لأمرين :

الأول : أن قولهم هذا واه لا يفتقر فى الرد عليهم إلى دليل ولاسيما وقد ورد الحديث عن خلق أصلهم من طين وخلقهم من ماء مهين ، فالقادر على البدء قادر على الإعادة .

الثانى : أكتفى الله بالرد عليهم فى مواطن أخرى كما يأتى :

(١) قياس الإعادة على إخراج الثمرات من الأرض عند اختلاط البذور بالماء قال تعالى (وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون)(١) .

---

(١) سورة الأعراف آية ٥٧

(ب) قياس الإعادة على البدء وقياس الإعادة على إخراج النار من الشجر الأخضر . وقياس الإعادة على خلق السموات والأرض قال تعالى (وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ، الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ، أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون) [١] .

(ج) قياس الإعادة على إحياء الرجل المضروب ببعض البقرة (فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون) [٢] .

ولقد ساق الله بعثاً وقع في الدنيا وهو بعث العزيز والذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، والمضروب بجزء البقرة وطيور إبراهيم .

المباحث العربية

« وقالوا أئذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلق جديد » الواو للاستئناف وفي هذا التفات من الخطاب إلى الغيبة « قليلا ما تشكرون » « وقالوا أئذا ضللنا » والقائلون هم أهل مكة وكل منكري البعث .

والجملة الاستفهامية الانكارية في محل نصب مقول القول والجملة الثانية « أئنا لفي خلق جديد) تأكيد للأولى والعامل في « إذا » في الجملة الأولى محذوف والتقدير نبعث أو نخرج لدلالة خلق جديد عليه ، ولا يجوز أن

---

(١) سورة يس آية ٧٨ — ٨٣
(٢) سورة البقره آية ٧٣

يعمل فيها المصدر « خلق » لأن ما بعد إن والاستفهام لا يعمل فيما قبلهما وجواب إذا محذوف إن جعلت شرطية والتقدير أئذا ضللنا فى الأرض نبعث مرة أخرى . ومعنى « ضللنا » أى غبنا فى الأرض وصرنا تراباً واختلطنا بتراب الأرض أئنا لفى بعث حديث . « بل هم بلقاء ربهم كافرون » بل للإضراب وهو اضراب انتقالى من بيان انكارهم للبعث إلى بيان ما هو أبلغ وأشنع منه وهو جحودهم بلقاء الله وما يلقونه من الأهوال وهم مبتدأ وكافرون خبره والجار والمجرور متعلق باسم الفاعل ولقاء مضاف ورب مضاف إليه والضمير مضاف إلى رب »

« قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون » قل يقبض أرواحكم جميعاً « ملك الموت الذى وكل بكم » فالتوفى هو استيفاء أى أن ملك الموت يقبض أرواحكم حتى لا يبقى أحد ممن كتب عليه الموت ثم تعودون إلى ربكم فيسائلكم عن كفركم به وإنكاركم للبعث ولقائه تعالى .

وهذه الآية تسند التوفية إلى ملك الموت وآية أخرى تسندها إلى الله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها) (١) .

وآية أخرى تسندها إلى رسل الله (حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون) (٢) .

ولا تناقض بين الآيات الثلاث فالأولى أسندت التوفية فيها باعتبار أن ملك الموت هو المباشر للوفاة وأسندت التوفية فى الآية الثانية لله باعتبار أنه الآمر بها ، وأسندت فى الثالثة إلى الرسل باعتبار أنهم أعوان لملك الموت ويقومون بمعاونته ولا تناقض بين الآيات الثلاث .

(١) سورة الزمر آيه ٤٢
(٢) سورة الأنعام آيه ٦١

معنى الآيتين

وزعم منكرو البعث أنهم يستبعدون أن يعودوا أحياء بعد موتهم ودفنهم وصيرورة أجسامهم ترابا ، يغيب في الأرض فتختلط ذراتهم بذرات الأرض ولا يدركون أن ذراتهم معلومة وفي لوح محفوظ قال تعالى (أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ) (٢) .

ثم قال الله : بل هم بلقاء خالقهم ومربيهم جاحدون مكذبون .

فملك الموت الذي وكل بهم يقبض أرواحهم ثم إلى ربهم يعودون فيحاسبهم .

---

(٢) سورة ق آيه ٣ ، ٤

مشهد من مشاهد يوم القيامة :

(ولو ترى إذ المجرمون نا كسوا رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون ، ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ، فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون) .

مناسبة الآيات بما قبلها :

بعد أن تحدث الله آنفا عن أن ملك الموت يقبض أرواحهم وأنهم يرجعون إلى الله ساق فى هذه الآيات ما يدور فى الموقف عند رجوعهم إلى الله بأنهم مطأطئوا الرءوس وأنهم يؤمنون بيد أن إيمانهم لا ينفع فقد فات الأوان .

المباحث العربية

«ولو ترى إذ المجرمون نا كسوا رءوسهم عند ربهم» الواو للاستئناف والخطاب لكل من له أهلية الخطاب «إذ» اسم للزمن المستقبل .

والمعنى : ولو ترى المجرمين وقت نكوسهم رءوسهم عند ربهم .

ولقد ذهب جمهور النحاة على أنها ليست إسماً للزمن المستقبل بل هى من باب تنزيل المستقبل الواجب الوقوع منزلة ما قد وقع .

«المجرمون» أصل الجرم قطع الثمرة عن الشجرة ثم استعير لكل اكتساب مكروه ، والمراد بالمجرمين : المنكرون للبعث القائلون «أئذا ضللنا فى الأرض أئنا لفى خلق جديد» .

« فاكسوا رءوسهم » أى مطأطئوها من الخزى عند ظهور قبائحهم التى عملوها فى الدنيا ، و« ناكسوا » خــبر المبتدأ « المجرمون » و« رءوسهم مضاف إليه من إضافة اسم الفاعل إلى مفعوله ، وقرىء ولو ترى إذ المجرمون « نكسوا » بفعل ماض ، فتكون رءوسهم مفعولا به « عند ربهم » أى حين حسابهم وجواب الشرط محذوف والتقـدير ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم لرأيت أمراً فظيعاً .

« ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون » « ربنا » مقول قول محذوف والتقدير يقولون ، وهذا القول حال والعامل فيه اسم الفاعل ناكسوا . وأصل الكلام يقولون يا ربنا فرب منادى بحرف نداء محذوف وهو منصوب لأنه مضاف « أبصرنا وسمعنا » أى صرنا ممن يبصر ويسمع الآن ، وكنا عمياً فى الدنيا وحذف مفعولى الفعلين لدلالة السياق عليهما فالأول أبصرنا البعث الذى كنا ننكره وسمعنا منك ما يدل على صــدق رسلك وفارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون » الفاء واقعة فى جواب شرط محذوف والتقدير إذا كان الأمر كذلك فارجعنا أى فارجعنا إلى الدنيا « نعمل » جزم الفعل لأنه واقع فى جواب الأمر به الالتماس وصالحا مفعول به ويجوز أن يكون وصفاً لموصوف محذوف والتقدير نعمل عمــلا صالحا .

« إنا موقنون » أى إنا مصدقون والجملة لا محل لهـا من الاعراب مستأنفة معللة للأمر السابق ، وهى مؤكدة بإن واسمية الجملة .

« ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها » هذا رد على التماسهم « فارجعنا نعمل صالحا» والمعنى . ولو تعلقت إرادتنا بهدايتهم لآتينا كل نفس هداها . قال النحاس فى وقت ذلك فى معنى هــذا قولان : أحدهما أنه فى الدنيا والآخر أنه فى الآخرة وجملة لوشئنا مقول قول محذوف والتقدير ونقول لهم لو شئنا .

« ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » والمراد بالجنة الجن والناس الإنس «فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم» الفاء لترتيب الأمر بالذوق على ما قبله ومعنى الذوق (وجود الطعم بالفم وأصله فيما يقل تناوله دون ما يكثر فإن ما يكثر منه يقال له الأكل واختير فى القرآن لفظ الذوق فى العذاب لأن ذلك وإن كان فى التعارف للقليل فهو مستصلح للكثير فخصه بالذكر ليعم الأمرين وكثر استعماله فى العذاب نحو «ليذوقوا العذاب»)(١) واستعير الذوق للإحساس . «بما نسيتم» الباء للسببية وما مصدرية والمعنى فذوقوا بسبب نسيانكم واختلف العلماء فى النسيان فقيل المراد به هو النسيان الحقيقى وهو الذى يزول عند الذكر ، ومعنى الآية على هذا القول فذوقوا بسبب عدم إيمانكم وتقصيركم فى العمل فكنتم كالناسين وقيل إن المراد من النسيان الترك ، والمعنى على هذا القول لابد له من تقدير مضاف قبل لقاء ، والمعنى ذوقوا بسبب ترككم ما أمرتكم به عذاب لقاء يومكم هذا وذهب إلى هذا الضحاك ويحى بن سلام والسدى ومجاهد ، ورجح الثانى المبرد وأنشد .

كأنه خارج من جنب صفحته ... سفود شرب نسوة عند مفتاد

«إنا نسيناكم» أتت هذه الجملة على سبيل المشاكلة والمعنى إنا تركناهم فى العذاب ترك المنسى ، «وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون» التكرير فى قوله «ذوقوا» للتوكيد أما الجملة الأولى فكان الأمر فيها بسبب النسيان وهذه الجملة الثانية الأمر فيها بسبب بيان عذاب الخلد وهو الدائم، والأمر فى الموطنين للاستهزاء وما فى قوله «بما كنتم» يجوز أن تكون مصدرية ويجوز أن تكون موصولة وعبر بالمضارع فى «تعملون» لأمرين .

١ — لاستحضار الصورة فى الذهن .

٢ — أو حكاية حال ماضية .

---

(١) المفردات فى غريب القرآن ص ٢٦٤

معنى الآيات

ولو ترى أيها السامع لهذه الآيات هؤلاء المجرمين وقد عرضوا على ربهم وهم خافضوا الرءوس يضرعون إلى الله فى ذلة يقولون يا ربنا عاينا البعث وسمعنا منك صدق رسلك الآن فارجعنا نعمل عملا صالحا إنا مصدقون الآن . ثم يأتى الرد من قبل الحق تبارك وتعالى هيهات هيهات ولو تعلقت إرادتنا بهدايتهم لآتينا كل نفس هداها ولكن ثبت ووجب القول من الله تعالى وهو « لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين . فذوقوا معشر الكافرين بالبعث بسبب تناسيكم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا العذاب الدائم بسبب ما كنتم تعملون .

سلوك المؤمنين قبل آيات الله تعالى :

« إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون ، تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون ، فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » .

مناسبة الآية بما قبلها :

لقد سبق الحديث عن كفر المجرمين بالبعث وموقفهم يوم القيامة ثم شرع فى إيمان المؤمنين بآيات الله المتضمنة للبعث فهم إذا ذكروا بها سقطوا ساجدين لله تعالى .

سبب نزول الآيات :

(قيل إن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ لأن قوماً من المنافقين كانوا يخرجون من المسجد إذا أقيمت الصلاة ذكر ذلك عن حجاج عن ابن جريج)(١) .

المباحث العربية

« إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون » .

« إنما » أداة حصر لا محل لها من الإعراب وهى والجملة بعدها مستأنفة « يؤمن » أى يصدق وينفع « بآياتنا » التنزيلية « الذين إذا ذكروا بها » أى إذا وعظوا بها « خروا سجداً » سقطوا على وجوههم ساجدين تعظيما لآيات

(١) تفسير الطبرى جـ ٢١ ص ٦٣ .

الله وخوفاً من سطوته وهم يفعلون ذلك دون غيرهم « خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم » أي خروا سجداً لله تعالى على وجوههم تعظيماً لآياته وسبحوا بحمد ربهم أي خلطوا التسبيح فنزهوه وحمدوه .

ولقد فسر بعض العلماء هذه الجملة بأن المراد أنهم يركعون : « قال ابن عباس « خروا سجداً » ركعاً ، وقال المهدوى وهذا على مذهب من يرى الركوع عن قراءة آية السجدة »(١) .

والذى أراه :

أن المراد « خروا سجداً » أي ساجدين واضعين جباههم على الأرض أما الذين يرون الركوع عند سجود التلاوة فاتجاههم بعيد لما يأتى :

١ — أننا لو تتبعنا الآيات التى يسن فيها السجود نجد فيها أمراً بالسجود كما فى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون »(٢) وكقوله تعالى «فاسجدوا لله واعبدوا»(٣) أو نجد فيها أسلوباً خبرياً فيه معنى الأمر كقوله تعالى « إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون »(٤) وقوله تعالى : « ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال »(٥) .

وهناك فرق بين الركوع والسجود والسجود أشرف من الركوع وأبلغ فى العبودية منه .

---

(١) الفتوحات الإلهية جـ٣ ص ٤١٦ .
(٢) سورة الحج آية ٧٧ .
(٣) سورة النجم آية ٦٢ .
(٤) سورة الأعراف آية ٢٠٦ .
(٥) سورة الرعد آية ١٥ .

٢ — أما الاستدلال بآية « ص » «فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب»(١) فإن المراد بالركوع السجود ، ودليل ذلك ما يأتى :

(أ) «عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « سجدها نبى الله داود توبة وسجدناها شكراً ، يعنى ص »(٢) .

(ب) عن « عكرمة بن خالد أن سعيد بن جبير أخبره أنه سمع ابن عباس يقول ، رأيت عمر قرأ على المنبر ـ ص ـ فنزل فسجد ثم رقى)(٣) .

ما الذى يسن قوله فى سجود التلاوة :

« عن أبى العالية عن عائشة أن النبى ﷺ كان يقول : فى سجود القرآن « سجد وجهى للذى خلقه وشق سمعه وبصره بحوله وقوته »(٤) .

ما الذى يفعله صاحب العذر إن كان لا يريد السجود :

« عن عمرو بن الحارث عن أبى لهيعة أن المشرح بن هاعان حدثه عن عقبة بن عامر قال : قلت يا رسول الله فى سورة الحج سجدتان قال : نعم ، إن لم تسجدهما فلا تقرأهما »(٥) .

« وهم لا يستكبرون » جملة مكونة من المبتدأ والخبر وهى فى محل نصب حال من الضمير المجرور « بحمد ربهم » ومعنى الجملة « وهم لا يعرضون ولا يتكبرون » « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » التجافى الارتفاع .

وتتجافى جنوبهم ترتفع عن مواضع الاضطجاع تاركين نومهم وراحتهم للصلاة والتهجد ، وهذه الجملة يجوز أن تكون حالا من الضمير

---

(١) سورة ص آية ٢٤ (٢) رواه الدار قطنى جـ١ ص ٤٠٧ .
(٣) المرجع السابق . (٤) المرجع السابق جـ ١ ص ٤٠٦ .
(٥) المرجع السابق ص ٤٠٨ .

المرفوع فى «يستكبرون»، ويجوز أن تكون فى محل رفع على الاستئناف .

« يدعون ربهم خوفا وطمعا » ينادونه تضرعا وتذللا ، والجملة الفعلية فى محل نصب حال من الضمير فى « جنوبهم » وخوفا وطمعا يجوز فيهما ثلاثة أوجه : يجوز أن يكونا حالين أى خائفين طامعين . ويجوز أن يكونا كل واحد منهما مفعولا لأجله ويجوز أن يكونا مصدرين لعامل مقدر والتقدير يدعون ربهم ويخافونه ويطمعون فى كرمه طمعا ، والجمل الحالية والأحوال كلها فى الأصل أحوال من اسم الموصول « الذين إذا ذكروا » .

« ومما رزقناهم ينفقون » ممـــا مكونة من بكسر الميم وما ويجوز فى ما أن تكون موصولة ويجوز أن تكون مصدرية ، والرزق كل ماينتفع به الإنسان والانفاق التصدق ، والمعنى على ضوء ذلك ومن الذى رزقناهم يتصدقون ، أو ومن رزقهم يتصدقون ، وعبر بالفعل المضارع فى قوله « ينفقون » ليدل على أن الإنفاق يتكرر ويتجدد منهم « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » الفاء للاستئناف ولا نافية ونفس نكرة وقعت فى سياق النفى فهى تفيد العموم « من قرة أعين» « قيل أصله من القر أى البرد فقرت عينه قيل معناه بردت فصحت ، وقيل بل لأن للسرور دفعة باردة تارة وللحزن دمعة حارة)(١) .

والمعنى : لاتعلم أى نفس مخلوقة ما أخفاه الله سبحانه وتعالى من سرور أعين أولئك الذين تقدم ذكرهم جزاء الذى كانوا يعملونه قرىء أخفى بالبناء للمفعول وقرأ حمزة ما أخفى بسكون الياء على أنه فعل مضارع مسند إلى الله تعالى ، وقرأ ابن مسعود ما نخفى بنون مضمومة ، وقرأ الأعمش بياء تحتيه مضمومه وقرأ الجمهور قرة بالإفراد وقرأ ابن مسعود وأبو هريرة وأبو الدرداء « من قرأت » بالجمع ، ويجوز فى « ما » فى قوله

---

(١) المفردات فى غريب القرآن ص ٦٠١

« ما أخفى » أن تكون استفهامية فهى فى محل رفع مبتدأ وأخفى خبره على قراءة من فتح الياء وبنى الفعل للمجهول وعلى قراءة من سكن الياء وجعل أخفى مضارعا تكون ما فى محل نصب مفعولا به لأخفى ، ويجوز أن تكون ما بمعنى الذى منصوبة بتعلم و« من » « قرة » حال على هذه القراءات من الضمير فى أخفى و« جزاء » مفعول مطلق لفعل محذوف والتقدير جوزوا جزاء والباء فى « بما كانوا يعملون للسببية وما موصولة .

« عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : قال الله تبارك وتعالى : أعددت لعبادى الصالحين ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر »[1] .

معنى الآيات

هذه صورة وضيئة للمؤمنين الذين يصدقون بآيات الله فإذا وعظوا بها سقطوا على وجوههم سجداً متأثرين بهذه الآيات تعظيما للذى أنزلها ونزهوه وهتفوا بالثناء عليه فهو أهل للثناء ، « وهم لايستكبرون » فلقد سجدوا خشية وتعظيم فى غير استعلاء واستكبار .

ثم تصور الآيات مشهداً من مشاهد مشاعرهم القلبية حيث يقومون فى ناشئة الليل التى تتجلى فيها النفحات الإلهية فتواكب تلك القلوب التى تدعوها المضاجع إلى الرقاد والراحة ولذة النوم ، تتجافى الجنوب عن المضاجع فارة إلى ربها فى تهجدها ، يدعون ربهم خوفا وطمعا ومن الذى رزقهم الله به ينفقون ، ويتجلى الكرم الإلهى والحفاوة الربانية فهو لايخبر عن مكنون هذا الكرم من سرورهم حتى يكشف عنه يوم القيامة فإنهم يجازون جزاء بسبب عملهم .

(١) صحيح البخارى ج ٣ ص ١٧٤

المؤمن والكافر فى الميزان وجزاؤهما :

(أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقا لايستون . أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون . وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون . ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون . ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون .)

سبب نزول الآيات

(عن عطاء بن يسار قال : نزلت بالمدينة فى على بن أبى طالب والوليد ابن عقبة بن أبى معيط. كان بين الوليد وبين على كلام فقال الوليد بن عقبة أنا أبسط منك لساناً وأحد منك سناناً وأرد منك للكتيبة فقال على أسكت فإنك فاسق فأنزل الله فيهما «أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقا لا يستوون» إلى قوله «به تكذبون»)(١) والآيات عامة لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

مناسبة الآيات بما قبلها

لقد تحدث الله سبحانه فى الآيات السابقة عن الكافرين المجرمين وذلهم ونكوس رءوسهم عند ربهم واعترافهم بالإيمان وتحدث عقب ذلك عن المؤمنين وسلوكهم قبل خالقهم وقيامهم الليل وبيان ما أعده الله لهم وفى أعقاب ذلك تحدث فى هذه الآيات عن عدم استواء المؤمن والكافر وبين جزاءهما وبدأ بالمؤمنين ثم ثنى بالكافرين .

---

(١) تفسير الطبرى حـ ٢١ صـ ٦٨

« أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقا لايستوون » الهمزة للاستفهام الإنكارى وهى داخلة على محذوف والفاء عطفت مابعدها على ذلك المحذوف وقد قدره أبو السعود فقال (أى أبعد ظهور مابينهما من التباين البين يتوهم كون المؤمن الذى حكيت أوصافه الفاضلة كالفاسق الذى ذكرت أحواله لايستوون)(١)

والمراد بالمؤمن جنس المؤمن والفاسق الكافر والعاصى ونفى المساواة بهمزة الاستفهام ولا الداخلة على الفعل المضارع ومجىء عدم الاستواء بصيغة الفعل المضارع للدلالة على التجدد والحدوث والاستمرار . كل هذه الأمور تنفى المساواة على أبلغ وجه وآكده فالمؤمن والكافر لايستويان فى الذات فذات المؤمن منيرة بالإيمان وذات الكافر مظلمة خراب والمؤمن كثير النفع ينتفع به فى كل شىء ولقد شبه الرسول ﷺ النخلة بالمؤمن فى حديث عبد الله بن عمر . والكافر ليس فيه نفع بل يجود بالشر .

قال تعالى (وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لايقدر على شىء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لايأت بخير هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم)(٢)

أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون »

« أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم» «أما » حرف شرط وتفصيل

---

(١) تفسير أبى السعود جـ ٤ صـ ٣٠٣

(٢) سورة النحل آية ٧٦

والفاء فى « فلهم » واقعة فى جواب الشرط وهذا تفصيل لمنازل الفريقين فى الآخرة بعد ذكر أوصافهما فى الدنيا .

« الذين آمنوا » صدقوا بكل ماجاء به الرسول ﷺ .

« وعملوا الصالحات » ترجموا الإيمان إلى واقع وسلوك فعملوا الصالحات أو الأعمال الصالحات ، فهذه الآية واضرابها تدل على أن الإيمـان اعتقاد وعمل .

« فلهم جنات المأوى » المأوى أى التى فيها القصور والخيام فيأوون إليها

« نزلا » حال والنزل هو مايقدم للضيف من طعام وشراب وفراش للراحة .

« بما كانوا يعملون » الباء للسببية . أى بسبب أعمالهم أو الذى كانوا يعملونه . « وأما الذين فسقوا » أما كالسابقة « فسقوا » خرجوا عن صراط الله المستقيم فالمراد بالفسق هو الكفر وفى الآية مقابلة . والمعنى فالنار منزلهم .

« كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها » هذا استئناف لبيان كون النار مأواهم « كلما » مكونة من « كل » و « ما » وماالمم نكرة بمعنى وقت وكلما منصوبة على الظرفية وفيها معنى الشرط وناصبها الفعل الذى هو جواب فى المعنى « أعيدوا » ، والمعنى كل وقت تضربهم النـــار إلى أعلى فيرتفعون فإذا أرادوا الخروج أعيدوا بضرب النار لهم وبضرب الزبانية لهم بالمقامع الحديدية .

« وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون » الجملة الأولى معطوفة على جملة « أعيدوا » أى وتقول الخزنة لهم ويقول الله لهم ولهذا بنى الفعل للمجهول ، والأمر للتوبيخ والإهانة ، والمعنى حسوا واسم الموصول

صفة لعذاب ، ويجوز أن يكون صفة للنار على معنى الجحيم .

« ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر » الواو للاستئناف واللام للتوكيد والنون للتوكيد ومن بيانية والمراد بالعذاب الآدنى هو العذاب فى الدنيا والعذاب الأكبر هو عذاب الآخرة ولقد اختلف فى المراد بالعذاب الآدنى فقال أبى بن كعب مصيبات الدنيا والبطشة والدخان وذهب إلى هذا الضحاك .

وذهب ابن عباس إلى أنها الحدود وذهب مسروق مذهب ابن مسعود إلى أنه القتل يوم بدر ، وذهب مجاهد إلى الجوع فأجاعهم الله سبع سنين حتى أكلوا الجيف والعظام والكلاب وذهب آخرون إلى القول بأنه هو عذاب القبر(١) وكل هذه الاتجاهات محتملة ويجوز أن يجمعها الله عليهم.

والمعنى ولنذيقنهم العذاب الآدنى غير العذاب الأخروى « لعلهم يرجعون » كى يرجعوا عن شركهم .

« ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها » كلام مستأنف لبيان حال من قابل آيات الله تعالى بياناً إجمالياً بعد حال من قابلها بالسجود والتسبيح واسم الاستفهام مبتدأ وأفعل التفضيل خبره ومعنى الاستفهام النفى أى لا أحد أظلم ممن وعظ بآيات ربه « ثم أعرض عنها » وأتى بكلمة ثم لاستبعاد الإعراض عنها عقلا مع غاية وضوحها وبيانها : « إنا من المجرمون منتقمون » منتقمون خبر إن واسمها الضمير والجار والمجرور متعلق بالخبر والمراد بالمجرمين الكفار والمعنى إنا معاقبون المجرمين وفى الجملة أسلوب قصر أى إنا من المجرمين منتقمون منهم دون غيرهم .

---

(١) انظر تفسير الطبرى جـ ١ صـ ٦٨ ، ٦٩

لطيفه :

لقد ورد أفعل التفضيل في قوله « ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه » فيلزم على ذلك أن المخبر عنه لايكون أحـــد أظلم منه فكيف وصف غيره بذلك في بعض المواضع القرآنية في قوله :(ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها) (١) وقوله « ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب » (٢) وقوله « فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه » (٣)

والجواب على ذلك من وجهين :

(أحدهما : أن يخص كل واحد بمعنى صلته كأنه قال: لا أحد من المانعين أظلم ممن منع مساجد الله تعالى ولا أحد من المفترين أظلم ممن افترى على الله ولا أحد من الكذابين أظلم ممن كذب على الله تعالى وهكذا كل ما جاء منه.
الثاني : أن هذا نفي للأظلمية ونفي الأظلمية لا يستدعي نفي الظالمية لأن نفي المقيد لايدل على نفي المطلق وإذا لم يدل على نفي الظالمية لايكون تناقضاً لأن فيها إثبات التسوية في الأظلمية وإذا ثبتت التسوية في الأظلمية لم يكن أحد ممن وصف بذلك يزيد على الآخر لأنهم متساوون في ذلك وصار المعنى ولا أحد أظلم ممن منع وممن افترى وممن ذكر ولا اشكال في تساوي هؤلاء في الأظلمية ولا يدل ذلك على أن أحد هؤلاء يزيد على الآخر في الظلم كما أنك إذا قلت لا أحد أفقه من زيد وبكر وخالد لايدل على أن أحدهم أفقه من الآخر بل نفيت أن يكون واحد أفقه منهم)(٤)

---

(١) البقرة : ١١٤
(٢) الزمر : ٣٢
(٣) الصف : ٧
(٤) الفتوحات الإلهية جـ ١ صـ ٩٦

معنى الآيات

أبعد ظهور التباين بين المؤمن والكافر يتوهم كون المؤمن الذى حكيت أوصافه كالفاسق الذى ذكرت أحواله لايستوون فى طبيعة ولا شعور ولا سلوك فالمؤمن مستقيم الفطرة متجه إلى الله سائر على منهجه والفاسق منحرف شارد مفسد فى الأرض وسيلقيان الجزاء فالمؤمنون المصدقون المترجمون التصديق إلى واقع عملى لهم جنات يأوون إلى قصورها فهى مبنية من لبنات ذهبية وفضية فيقدم لهم مايقدم للضيفان ويثوون فيها خالدين ناعمين . وذلك بسبب الذى كانوا يعملونه فى دنياهم .

والذين خرجوا عن طريق الله المستقيم وكان الكفر ديدنهم وكان الطاغوت إمامهم مأواهم النار كلما لفحتهم النار وضربتهم إلى أعلاها . ضربوا فأعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا العذاب الذى كنتم به تكذبون . وهذا تقريع وتوبيخ لهم ، وهؤلاء الفسقة ليسوا متروكين إلى ذلك الوعد الأخروى بل سيذيقهم الله عذاباً فى الدنيا غير عذاب القيامة وهذا العذاب هو إحلال المصائب بهم وإعمال السيف فيهم فى بدر ويلقون العذاب فى قبورهم لكى يرجعوا إلى حومة الإسلام ، ولا أحد أظلم ممن وعظ بآيات ربه ثم أعرض عنها وأبى قبولها إن الله منتقم من الكافرين المجرمين .

عبرة من الأمم السابقة :

(ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه وجعلناه هدى لبنى إسرائيل وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون . إن ربك هو يفصل بينهم فيما كانوا فيه يختلفون) .

مناسبة الآيات بما قبلها :

يقول صاحب البحر المحيط (لما قرر الأصول الثلاثة : الرسالة وبدء الخلق والمعـــاد عاد إلى الأصل الذى بدأ به وهو الرسالة التى ليست بدعا إذ قد سبق قبلك رسل وذكر موسى عليه السلام لقرب زمانه وإلزاما لما كان على دينه ولم يذكر عيسى لأن معظم شريعته مستفادة من التوراة ولأن أتباع موسى لا يوافقون على نبوته وأتباع عيسى متفقون على نبوة موسى)(١) .

والذى أراه :

أن الآيات السابقة انتهت بقوله تعالى « ومَن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون » ولقد ساق الله حديثاً عن رسول الله موسى حيث آتاه الله الكتاب المتضمن لآيات الله تعالى وكانت هناك طائفة من أمته كانوا يوقنون بتلك الآيات فاتخذوهم يا أهل مكة قدوة لكم فإذا ذكرتم بآيات الله فلا تعرضوا عنها وأيقنوا بها .

---

(١) البحر المحيط جـ٧ ص ٢٠٤ ، ٢٠٥

المباحث العربية

« ولقد آتينا موسى الكتاب » الواو للاستئناف واللام لام القسم .
« آتينا » أعطينا « موسى » هو نبي الله موسى بن عمران « الكتاب » هو التوراة « فلا تكن فى مرية من لقائه » الفاء واقعة فى جواب شرط محذوف والتقدير إن عرفت ذلك فلا تكن فى شك « من لقائه » فى هذا الضمير أقوال :

١ — إنه عائد على موسى فالمصدر لقاء مضاف إلى مفعوله . والمعنى فلا تكن فى شك من لقائك موسى ويحتمل هذا اللقاء احتمالين :

(أ) أن يكون ليلة الإسراء والمعراج حيث التقى الرسول ﷺ به فى بيت المقدس وفى السماء السادسة .

(ب) أو أنه التقى به فى موطن آخر وفى ليلة الإسراء (عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال أتيت وفى رواية هداب مررت على موسى ليلة أسرى بى عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلى فى قبره)(١) .

٢ — يجوز أن يعود الضمير على الكتاب وتكون الإضافة للفاعل والمعنى فلا تكن فى شك من لقاء الكتاب لموسى أو الإضافة للمفعول فلا تكن فى شك من لقاء موسى الكتاب . فاللقاء يصح نسبته إلى كل منهما .

٣ — يجوز أن يعود على ملك الموت لتقدم ذكره ويكون فى الكلام تقديم وتأخير والتقدير قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم فلا تكن فى مرية من لقائه فجاء معترضاً بين ولقد آتينا موسى الكتاب » وبين « وجعلناه هدى لبنى إسرائيل » .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٥ ص ١٣٣ .

٤ — يجوز أن يعود على الكتاب على مضاف والمعنى فلا تكن في مرية من لقاء مثل كتاب موسى .

٥ — يجوز أن يعود على محذوف يفهم من السياق وهو الإيذاء والشدة والعنت من القوم والمعنى ولقد آتينا موسى الكتاب فكذب وأوذى فلا تكن في مرية من أنه سيلقاك ما لقيه من التكذيب والأذى . وهذا الرأى ضعفه النحاس وقال هذا قول غريب .

« وجعلناه هدى لبنى إسرائيل » الضمير يعود على الكتاب ويجوز أن يعود على موسى وعوده على الكتاب أولى لأنه أقرب مذكور والهدى هو الدلالة الموصلة للغاية . وهدى مفعول ثان لجعلنا « لبنى إسرائيل » هم أولاد يعقوب عليه السلام وإسرائيل (مركب تركيب الإضافة مثل عبدالله فإن « إسرا » بالعبرانية هو العبد و « إيل » هو الله وقيل « إسرا » مشتق من الأسر وهو القوة فكأن معناه الذى قواه الله وقيل لأنه أسرى بالليل مهاجر إلى الله تعالى وقيـــل لأنه أسر جنياً كان يطفىء سراج بيت المقدس قال بعضهم فعلى هذا يكون بعض الاسم يكون عربياً وبعضه عجميا وقد تصرفت فيه العرب بلغات كثيرة أفصحها لغـة القرآن وهى قراءة الجمهور وقرأ أبو جعفر والأعمش «إسرايل» بياء بعد الألف من غير همز وروى عن ورش «إسرائل» بهمزة بعد الألف دون ياء و «إسرأل» بهمزة مفتوحة بين الراء واللام و « اسرإل» بهمزة مكسورة بين الراء واللام و «إسرال» محصنة بين الراء واللام وتروى قراءة عن نافع وإسرائين أبدلوا من اللام نونا كأصيلان في أصيلال ويجمع على أساريل وأجاز الكوفيون أسارلة وأسارل كأنهم يجرون التعويض بالتاء)(١) .

« وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون »

---

(١) الفتوحات الإلهية جـ ١ ص ٤٥

الجملة معطوفة على الجملة السابقة وجعلنا هدى « أئمة » جمع إمام وهو القائد والرائد والسيد وأصل الكلمة « أأممة » اجتمع المثلان وهما الميمان ثم أدغمت الأولى فى الثانية ونقلت حركتها على الهمزة فصارت أئمـــة بهمزتين . ويجوز فيها إبدال الهمزة الثانية ياء « أيمة » وهذا فى اللغة وليس قراءة .

« يهدون بأمرنا » أى يهدون غيرهم بأمرنا فى التوراة والجملة صفة لأئمة فى محل نصب « لما » بتشديد اللام ظرف بمعنى الحين وفيهـــا معنى الشرط فيكون له جواب وجزاء . وجوابها لمـا صبروا جعلناهم أئمة . والمعنى : جعلناهم قادة حين صبروا على هداية الناس وعلى البلاء « وكانوا بآياتنا يوقنون» وكانوا يصدقون بآياتنا الواردة لهم فى التوراة . والإضافة للتشريف وفى قراءة لحمزة « بتخفيف ميم « لما » فتكون اللام جارة تعليلية وما مصدرية والمعنى جعلناهم أئمة لصبرهم وإيقانهم .

« إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » هذا الكلام مستأنف « ربك » الرب هو منشىء الشىء ومربيه حالا بعد حال حتى يصل إلى حد التمام . والكاف للخطاب والمخاطب هو الرسول ﷺ . ويجوز أن يكون لكل من له أهلية الخطاب « هو يفصل بينهم يوم القيامة » الجملة من المبتدأ والخبر فى محل رفع خبر إن أى هو يقضى ويحكم « بينهم » الضمير المضاف إلى الظرف يعود على المؤمنين والكافرين ويستفاد من السياق .

« فيما كانوا فيه يختلفون » أى فى الذى كانوا فيه يختصمون ويتنازعون من أمر الدين .

معنى الآيات

ولقد أوحينا إلى موسى التوراة فلا تكن فى شك من لقائه فى الدنيا وفى الآخرة . وجعلنا التوراة هدى لبنى إسرائيل وجعلنا منهم أئمة يدعون الناس إلى الله وذلك حين صبروا على دعوة الناس وعلى البلاء وكانوا بآيات الله يصدقون . إن الله يفصل بين المؤمنين والكافرين يوم القيامة فى الذى كانوا فيه يختصمون من أمر الدين .

أسلوب ترهيب فى دعوة قريش :

(أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون) .

مناسبة الآية بما قبلها :

لقد تحدث الله سبحانه وتعالى فى الآية السابقة عن فصله يوم القيامة بين المؤمنين وبين الكافرين وفى هذا تهديد لقريش ثم ساق تهديداً آخر فى الدنيا وهو بطشه بالكفرة وآثار الأمم البائدة شاهدة على ذلك « يمشون فى مساكنهم . إن فى ذلك لعبرا أفلا يسمعون » .

المباحث العربية

« أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون » الهمزة للاستفهام الإنكارى وهى داخلة على محذوف يقتضيه المقام أغفلوا ولم يتبين لهم قالوا وعطفت ما بعدها على المحذوف قبلها ، « يهد » مجزوم وعلامة الجزم حذف حرف العلة والمعنى يتبين لهم وفاعل « يهد » مقدر من السياق والتقدير أو لم يهد كثرة إهلاكنا ، « كم » فى محل نصب مفعول « يهدى » ، « من قبلهم » الضمير يرجع إلى قريش والجار حال ، من القرون « من » يجوز أن تكون بيانية ويجوز أن تكون تبعيضية والمراد بالقرون أهل القرون مثل عاد وثمود فهم يمرون عليهم فى أسفارهم « يمشون فى مساكنهم » يجوز فى هذه الجملة وجهان .

١ — يجوز أن تكون حالا من الضمير المجرور « لهم » أو من القرون .

٢ — يجوز أن تكون فى محل رفع مستأنفة، مبينة لبيان وجه هدايتهم. «إن فى ذلك لآيات» اسم الإشارة مشار به إلى إهلاك بعض القرون السابقة، والمعنى إن فى إهلاك بعض الأمم الكافرة التى طلبت معجزات ثم أتت المعجزات واستمرت على كفرها دلالات على قدرتنا «أفلا يسمعون» الهمزة للإستفهام الإنكارى وهى داخلة على محذوف والتقدير أصموا فلا يسمعون آيات الله الواردة فى القرآن المتحدثة عن إبادة الأمم التى كفرت.

معنى الآية

طفق سياق هذه الآية فى بيان مصارع الأمم الغابرة حيث استخدم أسلوب الترهيب فيقول إن للآثار الخاوية لحديثاً رهيباً عميقاً للقلوب الشاعرة، وإن له لرجفة فى الأوصال وهزة فى القلوب ورعشة فى الضمير ولاسيما وأهل مكة يمرون على تلك الآثار فهو يوجه حديثاً إلى أهل مكة أو لم يبين لهم كثرة بطشنا بالأمم الغابرة التى خالفت منهج الله وصدفت عن آياته وهاهى أطلالها وآثارها التى درست وخربت تنطق بسنة الله فى المكذبين الضالين. ففيها دلائل توقظ القلوب وتثير الحساسية، والخوف من بطش الله وأخذه للجبارين أفلا يسمعون.

دليل على قــــدرة الله تعالى :

(أولم يروا أنا نسوق المـاء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون ، ويقولون متى هـذا الفتح إن كنتم صادقين، قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون) .

مناسبة الآية بما قبلها :

لقد تحدث الله فى الآية السابقة عن إهلاك الأمم التى كفرت بربها بعد إجابة طلبهـا فى وجود بعض المعجزات ثم استمرت سائرة على الكفر فأهلكها الله بقدرته ، وفى هذه الآية ساق دليلا على قدرته وهو تسيير الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم .

المباحث العربية

« أو لم يروا أنا نسوق الماء » الهمزة للإستفهام الإنـكارى وهى داخلة على محذوف والتقدير أعموا ولم يروا أنا نسير الماء ، وفى الجملة التفات من الغيبة إلى التكلم .

« إلى الأرض الجرز » (وأرض جرز وأجرزا ومجزورة لا تنبت أو أكل نباتها ولم يصبها مطر)(١).

قيل هى أرض اليمن وقيل أرض عدن ويبعد أن يكون هذا الوصف

---

(١) القاموس المحيط حـ٢ ص ١٧٤

لأرض بعينها والمعنى أى أولم يعلموا بسوقنا الماء إلى الأرض التى لاتنبت إلا بسوق الماء إليها.

« فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم » الفاء للترتيب أى لترتيب اخراج الزرع على سوق الماء ، والباء للسببية «زرعا» نكره ليدل على عموم أنواع الزروع «تأكل منه أنعامهم وأنفسهم» الجملة حالية والضمير فى «منه» يرجع إلى الزرع « أنعامهم وأنفسهم» قدم الأنعام على البشر لأن الأنعام تنتفع بالزرع فى كل مراحل نموه فتتغذى عليه وهو نابتة صغيرة وهو كبير وغير ذلك أما الإنسان فلا يأكل إلا ثمره «أفلا يبصرون» الهمزة للإنكار وهى داخلة على محذوف والتقدير أيرون ذلك فلا يبصرون بصر المتأمل الذى يصل إلى الخالق.

« ويقولون متى هذا الفتح » القائلون هم كفار مكة وسألوا هذا السؤال فلقد (كان المسلمون يقولون إن الله سيفتح لنا على المشركين أو يفصل بيننا وبينهم وكان أهل مكة إذا سمعوه(١) يقولون بطريق الاستعجال تكذيباً واستهزاء) متى هذا الفتح ومتى إسم إستفهام فى محل رفع مبتدأ والجملة بعده خبر أو هو فى محل نصب ظرف زمان « الفتح » الفصل بيننا وبينكم أو النصر » « إن كنتم صادقين » فى قولكم هذا وجواب الشرط محذوف. إن كنتم صادقين فمتى هو» « قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم » ولقد اختلف المفسرون فى المراد بيوم الفتح فقيل هو يوم البعث الذى يقضى الله فيه بين الخلائق قال تعالى « إن يوم الفصل كان ميقاتا ، يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا»(٢) .

---

(١) أى القول .

(٢) سورة النبأ آية ١٧ ، ١٨

وقال السدى هو يوم بدر، وقيل هو يوم فتح مكة والرأى الصحيح أنه يوم القيامة لأنه اليوم الذى لا ينفع فيه إيمان الكافر أما يوم بدر ويوم الفتح مما ينفع فيهما الإيمان ولقد أسلم في فتح مكة كثير من المشركين فنفع إيمانهم وتأخير الفاعل وتقديم المفعول واجب لأن الفاعل مقترن بضمير يعود على متأخر لفظاً ورتبة .

« ولاهم ينظرون » أى ولاهم يمهـــلون ولا يؤخرون عن الحساب « فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون » أى فأعرض عن سفههم وتكذيبهم، وانتظر يوم الفتح « القيامة » « وإنهم منتظرون » بك حوادث الزمن ورزايا الدهر وهلاكك .

ولقد ذهب بعض العلماء إلى أن هذه الآية الأخيرة منسوخة بآية السيف وقيل غير منسوخة إذ قد يقع الإعراض مع الأمر بالقتال .

معنى الآيات

أولم يروا الأرض الميتة بوراً ثم يسوق الله الماء المحي إليها فإذا هي تهتز خضراء مترعة بالزرع فتأكل منه الأنعام ويأكلون ، أيرون ذلك فلا يبصرون إبصار تأمل وسبر غور حتى يصلوا إلى خالقهم .

ويقولون متى هذا الفصل والحكم بيننا وبينكم إن كنتم صادقين أيها المسلمون ، قل يوم الفصل والحكم لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولاهم يمهلون ، فأعرض عن سفههم وانتظر هذا اليوم إنهم منتظرون بك ريب المنون .

فضـائل سورة السجدة

لقد وردت آثار فى فضائل هذه السورة منها :

١ —(عن خالد بن معدان قال اقرؤا المنجية وهى ألم تنزيل فإنه بلغنى أن رجلا كان يقرؤها ما يقرأ شيئاً غيرها وكان كثير الخطايا فنشرت جناحها عليه وقالت رب اغفر له فإنه كان يكثر قراءتى فشفعها الرب فيه وقال اكتبوا له بكل خطيئة حسنة وارفعوا له درجة)(١).

٢ — (عن كعب قال:من قرأ تنزيل السجدة وتبارك الذى بيده الملك كتب له سبعون حسنة وحط عنه بها سبعون سيئة ورفع له بها سبعون درجة)(٢) .

٣ — (عن جابر قال : كان النبى ﷺ لاينام حتى يقرأ ألم السجدة وتبارك)(٣) .

٤ — (عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى صلاة الصبح يوم الجمعة : ألم ، تنزيل وهل أتى)(٤) .

٥ — عن ابن عباس رضى الله عنه أن النبى ﷺ كان يقرأ فى صلاة الصبح يوم الجمعة تنزيل السجدة وهل أتى على الإنسان)(٥) .

تمت بحمد الله سورة السجده

---

(١) سنن الدارمى حـ ٢ ص ٤٥٤، ٤٥٥

(٢) المرجع السابق ٤٥٥

(٣) المرجع السابق .

(٤) سنن النسائى حـ٢ صـ١٥٩

(٥) سنن النسائى حـ٢صـ١٥٩

أهم المراجع

١ — إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، العلامة أبي السعود ٨٩٣ — ٩٨٢ ، دار الفكر للطباعة والنشر .

٢ — تفسير القرآن العظيم ، الإمام أبو الفداء اسمياعل بن كثير الدمشقي المتوفى ٧٧٤ هـ ، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت .

٣ — جامع البيان في تفسير القرآن ، الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى ٣١٠ هـ ، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت .

٤ — روح المعاني ، العلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي المتوفى ١٢٧٠ هـ ، دار الفكر .

٥ — فتح القدير ، محمد بن علي الشوكاني ، ط مصطفى البابي الحلبي .

٦ — في ظلال القرآن ، الأستاذ الشهيد/سيد قطب ، دار الشروق .

٧ — مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، عبد الله بن محمود النسفي ، دار إحياء الكتب العربية عيسى الحلبي .

٨ — البحر المحيط ، الإمام محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي ٦٥٤ — ٧٥٤هـ دار الفكر للطباعة والنشر .

٩ — التفسير الكبير ومفاتيح الغيب ، الإمام محمد الرازي فخر الدين العلامة ابن العلامة ضياء الدين عمر المشتهر بخطيب الري ٥٤٤ — ٦٠٤هـ ، دار الفكر للطباعة والنشر ، ط دار الكتب العلمية .

١٠ — الجامع لأحكام القرآن ، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي المتوفى ٦٧١ هـ دار الفكر للطباعة والنشر .

١١ — الفتوحات الإلهية ، سليمان بن عمر العجيلى الشافعى المتوفى ١٢٠٤ مطبعة عيسى البابى الحلبى .

١٢ — الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل ، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشرى ٤٦٧ — ٥٣٨ ، ط مصطفى البابى الحلبى وأولاده .

١٣ — المفردات فى غريب القرآن ، الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصبهانى ، مكتبة الأنجلو المصرية .

١٤ — صحيح البخارى بحاشية السندى ، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى ط عيسى البابى الحلبى .

١٥ — صحيح مسلم بشرح النووى ، الإمام مسلم والإمام النووى ، دار إحياء التراث العربى بيروت .

١٦ — فتح البارى بشرح صحيح الإمام البخارى ، أحمد بن على بن حجر العسقلانى ٧٧٣ — ٨٥٢ ، دار الفكر للطباعة والنشر .

١٧ — تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى ، الإمام أبو على محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفورى ١٢٨٣ — ١٣٥٣ مطبعة الفجالة الجديدة .

١٨ — سنن النسائى بشرح جلال الدين السيوطى وحاشية السندى ، المكتبة العلمية — بيروت .

١٩ — سنن الدارمى ، الإمام أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل ابن بهران الدارمى المتوفى ٢٥٥ هـ ، دار الكتب العلمية بيروت .

٢٠ — البرهان فى علوم القرآن ، الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى ، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت .

٢١ — التفسير والمفسرون ، د/محمـــد حسين الذهبي دار الكتب الحديثة .

٢٢ — القاموس المحيط مجـد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادى دار الجيل.

٢٣ — مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، جمـــال الدين بن هشام الأنصارى المتوفى ٧٦١ هـ ، دار الفكر .

رقم الإيداع بدار الكتب
٥١١٥ / ١٩٨٨ م